تردُّدَات

تردُّدَات

قصص قصيرة

مينا ناجي

دار العين للنشر

أسستها د. فاطمة البودي عام 2000

المدير العام

4 ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: 23962475 20+ ، فاكس: 23962476 20+

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الطبعة الأولى: 2023 م

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣٠٤١ /٢٠٢٢

I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 671 – 8

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار العين

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

تردُّدَات

قصص قصيرة

مينا ناجي

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

ناجي، مينا

تردُّدَات: قصص قصيرة/ مينا ناجي.

الإسكندرية: دار العين للنشر،٢٠٢٣

ص؛ سم.

تدمك: ٨ ٦٧١ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١– القصص العربية القصيرة

أ– العنوان

٨١٣,٠١

رقم الإيداع / ٢٣٠٤١ / ٢٠٢٢

إلى أمجَد الصبَّان

لأنَّ الخفيف وزنًا يُخيفك إن أحْصيتَهُ.

القديس أوغسطينوس

المحتويات

- سِيَر ذاتيَّة 11
- مُصالحة خَاسر جيِّد 25
- الأُسْطَى والصَّبِي 33
- ليسَتْ فتَاةً صَغِيرة 39
- حَنَان 63
- مَوعِد لَيْليّ 69

سِيَرٌ ذاتيَّة

يَحكي لي الناس قصصهم. لا أعرف لماذا. لكنهم يختارونني كي يقولوها. رغم أن من هم مثلي في العاشرة لا يفهمون كل ما يُقال لهم. لاحَظَ بابا وماما هذا وما يحدث لي وجعلوني أذهب إلى الدكتور كريم. اسمه مثل صديقي المقرَّب كريم. ليس لديه سمَّاعة مثل بقية الأطباء. يجلس ويتكلم معي فقط. أحيانًا يكتب أشياءَ لا أراها وأنا أجاوبه. يجلس على كُرسيٍّ وراء المكتب. قال لي إنني مختلف قليلًا عن الآخرين. كنت خائفًا أن يجعل هذا بابا وماما زعلانين مني. لكن يبدو أنهما قَلِقان أكثر منهما غاضبان. أو هكذا قالا. لا أعرف.

شرح لي الدكتور كريم إنه طبيب في 'الحياة الداخليَّة' للناس التي لا يستطيع أحدٌ أن يراها. وأنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام؛ لحظة

أتذكَّر: ماضٍ ويُسمى الذاكرة، حاضر ويُسمى التفكير، ومستقبل ويُسمى التوقُّعات. سألتُه كيف يعمل في شيءٍ لا يراه. ضحك وقال: إنه يوجد الكثير لا نراه ولكننا نتعامل معه. مثل الله مثلًا. فقلتُ له: إن الله أرسل لنا كلمته لكي نتعرَّف عليه. فردَّ قائلًا: إن الإنسان أيضًا يبعث بكلامه لكي نرى حياته الداخلية، ولسببٍ ما يختارني الناس لكي يُروني حياتهم الداخلية، وأني من الممكن أن أصبح طبيبًا عظيمًا في الحياة الداخلية حين أكبر إذا رغبتُ في ذلك. لا أعرف. لكني لا أرغب في هذا، أنا أريد أن أصبح مهندسًا في الإلكترونيَّات مثل بابا.

إذا حكى أحدهم لي قصَّته أرجع البيت تَعْبَان وكأن هناك مَنْ ضربني على رأسي مراتٍ كثيرة. مثلما فعل مرَّة صديقي كريم في المدرسة أثناء عِرَاكنا بسبب اختلافنا على نتيجة مباراة سكواش الحائط، التي نلعبها بِكُرةِ تِنِس نخبطها بكفوفنا. ضربني على رأسي بكتابٍ كبيرٍ كان يحمله زميلٌ لنا. كنتُ غير قادر على المشي بشكلٍ مستقيم. هذا ما أشعر به حين يحكي لي أحدهم قصته. أرجع إلى البيت ولا أتكلم أو أردُّ على أحدٍ حتى موعد النوم. وحين أنام أُصاب بالكوابيس وأرى أشياءَ مفزعةً وأستيقظ مراتٍ عدَّة وأنا أصرخ. وفي الصباح يكون الفِراش مبللًا. يسبِّب هذا مشاكل كبيرة لماما. في الأيام التالية أتكلم قليلًا وأنام كثيرًا. في المدرسة تصبح درجاتي سيئة، وأنا دائمًا درجاتي مرتفعة ومن

أوائل الفصل، وأُعاقب لشرودي أو نومي. الدكتور كريم كتب لي على أدوية من أجل تلك الأشياء. إنها أيضًا تجعلني شاردًا ونائمًا أغلب الوقت!

اعترضتْ ماما على ذهابي إلى الدكتور كريم لأني لا أتحسَّن. بابا قال إنه من الأفضل لي أن أتابع مختصًّا. كَوْني 'مختلفًا'. قالها بصوتٍ خفيضٍ كأنه يقول شيئًا لا ينبغي أن يسمعه أحد. وأضاف إنني بمساعدة دكتور كريم أستطيع في المستقبل إتقان استخدام هذا الاختلاف والكسب منه. أصرَّت ماما أن الدكتور كريم لا يهمُّه سلامتي ولا مستقبلي في شيء. لا أعرف.

قلَّت زيارتنا للدكتور كريم بسبب طلب ماما: مرتان في الأسبوع بدلًا من أربعة. أنبسطُ بالذهاب إليه. يسألني بعض الأسئلة ويُفرِّجني على صورٍ وأفلام ويجعلني أرسُم وألوِّن. كما أننا دائمًا ونحن راجعون يشتري لي بابا الميلك – شيك الذي أحبه.

*

يخبرني الدكتور كريم إن جلسة اليوم مختلفة قليلًا. سيبدأ معي لعبة جديدة. سيقابلني ببضعة أشخاص لنتحدث سويًا. وبعد كل مقابلة عليَّ أن أخبره بما أخبروني إيَّاه. وعلى عكس المرات السابقة لن يكون حاضرًا معي، بل سينتظر خارج الغرفة

مُشاهِدًا المقابلات على الكاميرات. وإذا استطعت أن أساعده في الوصول إلى ما يريد معرفته، سآخذ جائزة كبيرة جدًّا جدًّا. ثم قال إنه واثق أني سأفوز بها لأني ولدٌ استثنائيّ.

*

دخل الزائر الأول. رجل طويل ومليء قليلًا. ابتسم في وجهي وسألني عن اسمي. قلتُ له عن اسمي وأخبرته أن يستمر بالكلام. ضحك وقال إنه لا يعرف ماذا يقول لكنه مبسوط أنه قابلني. سألتُه: لماذا؟ فضحك مرةً أخرى وقال لأني ولدٌ لطيفٌ وجميل. سألتُه كيف عَرف أني ولدٌ لطيفٌ وجميل.

يدخل الدكتور كريم بعد خروج الزائر. يسألني عمَّا أخبرني به. أقول له إنه حكي لي قصةً ما عن الخوف من العالَم. عن شيءٍ انكسر ويحاول إصلاحه. دون فائدة. عن إنه يريد الانتقام. من نفسه، لأنه لا يوجد أحد ينتقم منه. ومع ذلك يتصرف كما لو هناك أملٌ. وإنه يشعر أنه متروكٌ لنفسه، يُؤكَل من الحزن والجفاف. وإنه يحب امرأةً ما لكنَّ جزءًا كبيرًا من وقتها لا يقدر أن يكون معها. وهذا يعذبه. أن تكون بالخارج هناك من غيره، تقابل أناسًا آخرين، أناس جُدُد، وسيحدث، مثلما سافرَتْ مدة شهر الصيف الماضي، أن ترى شخصًا يريدُها. في كل مرةٍ يكون هو هنا وهي هناك من غيره يتساءل: هل سيحدُث اليوم؟ يشعر أنه وحيد وحزين. وأحيانًا يشعر بملَلٍ فظيعٍ ينتابه. يريد أن يلعب

قليلًا، أن يكون حُرًّا قليلًا. يريد أن يجد حِيلة. حِيلة نافعة أمام هذه المتاهة غير المرئيَّة. يحاول أن يكون ظريفًا، مريحًا، جذَّابًا، حَبُّوبًا، أو حتى شخصًا سَوِيًّا وطبيعيًّا. وإنه أحيانًا يشعر بأنه لن يقدر أن يكمل العيش هكذا، بكل هذا التكرار واليأس. حكى لي عن هذا الصوت الحلو داخله ليدمِّر نفسه. صوتٌ يناديه كي يُفني ذاته بأسوأ الطرق. أخبرني أيضًا عن وشم البجعة على ذراعه اليُسرى وإن أمَّه ميتة.

يسألني الدكتور كريم أن ألخِّص القصة التي سمعتها لتوِّي في كلمة. أفكر طويلًا حتى أصل إليها ــ **الشجاعة!**

*

كنت أنتهي من الميلك – شيك الذي أعطاه لي الدكتور كريم بنكهتي المفضَّلة 'الفراولة'، حين دخلت امرأةٌ في سِنِّ الرجُل السابق تقريبًا. لم يجعل الدكتور كريم ماما تراني بعد ملاقاة الزائر الأول. كانت في الأغلب ستُرجعني للبيت. كنتُ مرهقًا وأشعر بالإعياء وأتكلم بصعوبة، لكن الدكتور كريم أعطاني حُقنةً شعرتُ بعدها بتحسُّن كبير. أنا على عكس أصدقائي لا أخاف من الحُقَن ولا أعرف لِمَ يخاف أحدٌ من إبرة رفيعة!

المرأة التي دخلت أيضًا شديدة الرُّفع مثل الإبرة. رغم أنها تلبس ملابس واسعة عليها، شكلها قديم. تلبس أيضًا نظارات

مُدوَّرة وشعرُها قصير مثل البنات الصغيرات. ذكَّرتني بشكل كبير بهاري بوتر. لكنَّ وجهَها جامدٌ كأنه حجر. جلسَتْ أمامي دون أي تحية. ثم ابتسمَتْ فجأةً وقالت كأنها تهمس: "هاي!" وعدلت من نظارتها. تركتُ كوب الميلك – شيك الفارغ على الأرض بجانبي، وقمتُ من كُرسِيَّ وذهبتُ إليها سائلًا إذا كانت رأت الله من قبل.

ضيَّقت عينيها وهي تنظر لي وقالت إنها لم تَرَ سوى غيابه وغيابه واضحٌ للغاية، حتى إنها تستطيع أن تراه. صوتها خفيض وهادئ لكنها تتكلم بسرعة. وضعت يدي على يدها فسحبَتْها في نفس اللحظة. سَرَتْ في جسدي كله كهرباء شديدة. كأني وضعتُ إصبعي في مِقْبَس الحائط. فعلت ذلك مرةً وأنا عندي ثلاث سنوات وذهبوا بي إلى المستشفى. لا أعرف. هكذا حكوا لي. عدلت نظارتها مرةً أخرى وقالت بنفس الصوت البارد إنها لا تحب اللَّمْس.

بعد لحظاتٍ دخل الدكتور كريم وطلب منها أن تتجاوب معي. فقالت إنها ليس عليها "الخضوع لمثل هذا الإجراء بالأصل". قلت لها إذا كانت لا تودُّ الحديث فيكفي أن نجلس معًا دون كلام. تردَّدت في البداية ثم قالت إنها ليس لديها مانع في الحديث لكن دون أن تُلمَس. خرج الدكتور كريم من الغرفة وأغلق

الباب خلفه. سألتُها لمَ لا تحب اللمس، فقالت إنها لا تعرف، هي هكذا من صِغَرها.

*

أحكي للدكتور كريم عن قصَّتها التي أخبرتني بها: عن أنها ليس لديها رغبات الكبار. عن أنها لم تدخل الكاثوليكيَّة لأنها بالنسبة إليها ليست كاثوليكيَّة بما يكفي. عن أنها في انتظار. عن إصابتها بالتهاب الزائدة الدوديَّة والإحسَاس بالمعاناة في الصين. عن زميلتها الشهيرة التي لم تجرِّب الجوع من قبل. عن أن ترغب دون أي تَمَنٍّ. عن شعورها بالقرف من نفسها ومن الكائن البشري عمومًا. عن استغرابها كيف يمكن أن يتحملها أحد. عن أن الأذى هو أن نحوِّل للآخرين الانحِطاط الذي نحمِله داخلنا. عن أننا نَميل لذلك لارتكاب هذه التصرُّفات كوسيلة للنجاة. عن بشاعة ما حدث لصديقتها الأجنبية هنا. عن الحقيبة التي سقطت في الشارع. وتطايُر الأوراق في كل مكان. وجزعها من أنه قد تم كشفهم بسببها! عن أن تحب غريبًا كنفسك تتضمن أيضًا أن تحب نفسَك كغريب. عن ألقابها: الغريبة. المريخيَّة. العذراء الحمراء. عن جرعاتٍ أقل من الطعام بسبب الشعور بالمسئولية والتضامن. عن الزائر السابق الذي وصفها بأن لديها جناحين بعرض باريس رغم كذب ذلك. عن أخيها العالِم. عن أنها أيضًا مغايرة لما تتخيَّله عن نفسها. وعن نتيجة أن

تدرك ذلك. عن أنها تعاني من أنها تترك الآخرين يعانون.

يسألني الدكتور كريم ما الكلمة. أقول وأنا أحاول التقاط أنفاسي – **القداسة!**

*

أنتهي من الساندويتش الذي أعدَّته ماما. مُربَّى النَّارنْج التي أحبُّها. أكلت نصف الساندويتش الثاني أيضًا لأني جوعان. حلاوة بالزيتون. يعطيني الدكتور كريم حقنةً أخرى. تماسكتُ وتحملتُ الوجع في كل مكان في جسمي، لأن ماما كانت حاضرة ولا أريدُها أن تقلق.

دخلت هذه المرة سيدة عجوز. تشبه الأجانب. جلستْ ونظرتْ لي مبتسمةً دون كلام. كانت تنظر حولها باستمرار. حاولت أن أتذكَّر كيف أسأل "كيف حالُك" لكني نسيت. How do you doing? لا أعرف. كنت أحاول التذكُّر وأخذ هذا مني بعض الوقت، كانت بدأت فيه تفقد انتباهها معي وتهزّ رجلها بسرعة.

قررت أن أتكلم معها بالعربية. سألتُها إذا كانت لديها أولاد. ردَّت بعربيةٍ مضحكةٍ مثل الأجانب في المسلسلات إنها لديها ولدان. طلبتُ منها أن تحكي لي عنهما وسألتها إذا كانت تحبهما. قالت إنها تحبهما جدًّا وهما الآن كبار. تزوجوا وسافروا وهي

قررت البقاء في مصر. قمت من مكاني وسندتُ يدي على كتفها. قالت إن ابنها الأكبر يعمل مُدرِّسًا في الجامعة والأصغر مُحام دولي. وأنها صديقة الزائرة السابقة، وجارة الزائر الأول.

كنتُ مرهقًا للغاية من الزائرين السابقين. كدتُ أفقد وعيي. ويبدو أن هذا ظهر على الكاميرات، لأن دكتور كريم دخل الغرفة وسألني إن كنتُ على ما يُرام. قلتُ كاذبًا إني بخير. خرج وأغلق الباب خلفه. لكن قبل إغلاق الباب رأيت ماما بالخارج تُشيح بيدها وهي تكلم الدكتور كريم. ركَّزت انتباهي مع السيدة الشقراء. وضعتُ يدي على كتفها وطلبتُ أن تُكمِل كلامها.

في وسط ما كانت تتكلم أُغشى عليَّ. بعد إفاقتي لم أكُنْ واعيًا تمامًا. لكني شعرتُ أني عرفت ما ينبغي معرفته لتنتهي اللُّعْبة. لا أعرف. لم أكن متأكدًا.

*

زوجُها هو من شجَّعها على التورُّط في هذا النشاط، الذي يُعدُّ أمرًا خطيرًا في بلدها. منزلها فُتِّش مراتٍ عديدةً وخسرت عملها في المدرسة. لكنه وقف بجانبها طوال الوقت ولم يتركها لحظة. قُبِض عليها أثناء ذهابها للاشتراك في أحد تلك الأنشطة، حاملةً لافتةً مكتوب عليها مقولة لواحدة تُدعى روزا شيء ما. "الحرية هي إلى أي مدى خَصْمك حُرّ". لم أفهم معنى المقولة

لكن كل ما كانت تريده هو حياةً أفضل لها ولأولادها. قالت إنها خُربت هناك ولذلك خُربت في كل مكان. فهذا الأمر طاردها حتى هنا، مثلما تأكدت الصيف الماضي أثناء رحلة مع أولادها. وقالت أيضًا إنها كانت لتستطيع احتمال كل شيء. أي شيء. التحقيق والتعذيب والسجن. ما عدا هذا الأمر. حين سألتها ما هو، قالت إنها اطلعتْ على الأوراق بعد ذلك، بعد انتهاء كل شيء، ووجدت في خانة المُخبِر اسم زوجها. قالت إنها للحظةٍ ماتت ورجعت للحياة. قالت إن المفاجئ في الأمر هو أن التقارير التي كتبها عنها كما لو كانت مكتوبة عن شخص غريب، لا عن زوجة. بالنسبة إليه كنتُ عَدُوًّا. وقد فعل كل شيء ليحاربني.

يسألني الدكتور كريم. أقول: **المعرفة!**

*

أشعر أن رأسي يتمرجح وحدَهُ. الدنيا لونها أصفر وتظهر وتختفي بقع حمراء وسوداء أمام عيني. لا أريد أن آكل شيئًا. بطني تؤلمني. يقيس الدكتور كريم ضغطي ويبدو عليه الانزعاج. يسألني إن كنت أستطيع الإكمال. لا أعرف. أسأله عن عدد المتبقِّين، فيقول: واحد فقط. تصيح ماما إنها ترفض أن يتم استكمال الجلسة. يسألني بابا إذا كنت أريد الرجوع للبيت، فأقول في إصرارٍ إني أريد الإكمال وإنهاء اللعبة والفوز بالجائزة.

تصيح ماما مرَّةً أخرى إنها غير موافقة وإن شيئًا ما سيحدث لي لو استمررتُ. صحيح. لم أشعر بمثل هذا الإعياء من قبل. فرغم تدرُّبي على قراءة الحياة الداخليَّة لفترةٍ طويلةٍ في الجلسات السابقة، فإنها المرَّة الأولى التي أستمع إلى ثلاث قصص كاملة في نفس اليوم!

يقول دكتور كريم إنه يمكنني الاستمرار لكن يجب أن آكُل وأستريح أولًا. كانوا قد جلبوا طعامًا من الخارج. فراخ مقليَّة مع ميلك – شيكي الأحمر المُحبَّب. جلبوا لي أيضًا لوحًا من الشوكولاتة بالبندق كتَحْلية.

*

دخل رجل أصغر سِنًّا من الثلاثة السابقين. أسمر وقصير قليلًا. له لحيَةٌ وشعرُه أكْرَت. سلم عليَّ قبل أن يجلس. فعض أصابعي وأوجعني. كان ملمَس يده غريبًا.

سألني عن اسمي فأخبرته. سألني هل أذهب إلى المدرسة. هززتُ رأسي وقلت له اسم المدرسة. ثم سألته ماذا يعمل فقال إنه مهندس. يعمل في الإنشاء. وإنه صديق الزائر الأول. وهو يتحدث كنت أطالع يديه. بهما جروح وتمزُّقات. كأنهما يدَا زومبي في لعبة بلاي – ستيشَنْ. سألته ما هو الإنشاء. فقال: إنه مجال بناء المباني المختلفة؛ البيوت والفنادق والمَحالّ وحمَّامات السباحة

وغيرها. وأن أغلب عمله في مدن ساحلية على البحر. قمتُ من مكاني ووضعتُ يدي على كتفه فأنزلها بسرعة من تحت يدي. سألته إذا كان لا يحب اللمس. قال: لا، لكن كتفه تؤلمه قليلًا.

وضعتُ يدي على رِجْله مثل الزائر الأول. وسألته هل يحب عمله وكونه مهندسًا. فقال: نعم. سألته لماذا. فحكى لي عن العلامات الدامية على كتفيه من حمل الشكائر الثقيلة طوال اليوم. يَلزم أن يهدُّه التعب قبل دخول الليل. هذه هي الوسيلة الوحيدة كي يستطيع النوم. قال إنه لا يريد الكلام معي وإنه من المستحيل أن يُنجب أطفالًا. لأنه لو أنجب طفلًا مثلي سينتقم مما فعله. حكى لي عن القفز من سور الدَّيْر. وثَنْي الرُّكبتين قبل القفز والتيبُّس هكذا. ضحك ثم بكى. قال إنه يحمل طوبًا أحمرَ أيضًا بالرغم من اعتراض عُمَّاله واستغرابهم. حكى لي عن اليوم الذي طلب فيه أبوه أن يأتي إليه في المحل. لكنه رفض لأنه كان على خلافٍ معه. وأنه في نفس اليوم مات وحيدًا من دونه. عن أنه كان يحتاج إليه، وكان يمكنه إنقاذه. ولذلك حين يحتاجه قريب لا يتأخَّر أبدًا، حتى لو كان على رقبته.

يسألني الدكتور كريم. أجاوبه وأنا أمسح المخاط النازل من أنفي بظَهْر كَفِّي وألهث عميقًا، لأكتشف أن صوتي قد بُحَّ تمامًا – **الغفران!**

*

لم يكن مخاطًا لأن لونه أحمر. دَمٌ. تفزع ماما والدكتور كريم يُطمئنها. يقول لها إني على ما يُرام. تحتضني وتصرخ فيه إني لست على ما يُرام أبدًا ولا يمكن أن يتعرض طفل صغير لكل هذا. يقول لها إننا انتهينا وعليَّ فقط أن أجيب عن سؤال بسيط لأخذ مكافأتي وأرجع البيت لأستريح. تستمرُّ ماما بالصراخ ويأخذها بابا من ذراعها إلى الخارج.

يغلق الدكتور كريم الباب ليرجع لي ويسألني مَنْ مِنَ الأشخاص الأربعة أفضل حظًّا. أُخبره إني لا أعرف الإجابة. يبتسم ابتسامة غريبة ويقول إن هذا ليس مُهمًّا، فهو ليس سؤال اللعبة الأساسي. يُخرج من جيبه هاتفه ويُريني صورة رجل سمين وقصير. أصلع من منتصف رأسه ومغمض العينين كأنه نائم. لكن خلفه مياه البحر ورأسه مُهشَّم من فَوق. بدا لي مثل فُقَمَة بحر مُشوَّهة. يسألني: مَنْ مِن بين الزائرين الأربعة قتل هذا الشخص؟

أقول له إني شككتُ في البداية في الزائرة الثالثة. لكنها ليست هي القاتل. يسكت قليلًا وينشغل بالتفكير. يسألني إن كنت متأكدًا أنه ليس الرابع. أجاوب بالنفي. يسألني إذا كنت أريد أن أستريح ثم أحاول الإجابة مرَّةً أخرى. أقول له لا، فأنا أعرف مَنْ فعلها. ينظر لي كأنه لم يتوقع ردِّي. يسألني مَنْ؟

أُخبره إني قابلت هذا الشخص في الصورة في المصيف. وحكى لي قصته. وإني أتذكَّره جيدًا لأني حلمتُ بكوابيس كثيرة ليلتها

والليالي التالية. حتى إن بابا وماما اضطرَّا لقطع المصيف والرجوع. ليلتَها رأيتُه يقفز من صخرة عالية ورأسه يتحطم، ثم يطلب من أحدٍ أن يأخذ ظرفًا به نقود. لكن الشخص يقول له إنه لم يدفعه بل هو من قفز بنفسه. فيردُّ بأنه لا يوجد فارق وأنه باتفاقه قد قفز بنفسه بالفعل. كلمة قِصَّته إذا أراد أن يعرف هي **الفوز!**

لا يبدو الدكتور كريم راضيًا بإجابتي. لأول مرَّة أرى وجهه غاضبًا. يقول إني أهلوس من التعب والحُقَن التي أخذتها، لكنه مع ذلك سيعطيني جائزتي. لا أعرف. أشعر **بالسعادة!**

مُصالحةُ خَاسرٍ جيِّد

– في بداية كلامي أحب أن أؤكِّد على شيءٍ.

مهما بدا الأمر فأنا لم أُرِد أن أوجِّه لكِ تلك الأشياء التي قُلتها. كنتُ مجرَّد أحمق بدرجة ذكاء أُتوبيس نهري. وكانت تلك أول مرَّة أدخل فيها هذا المُول. مرَّة قبل سنوات دخلتُ 'سيتي ستارز' مع صديقٍ ليبيّ وهَاله منظري، ومن وقتها لم أطأ بقدمي أي مُول.

المهم، حين وصلتُ يوم الجمعة المُشمِس على غير المتوقع إلى المُول، كُنتِ باردةً معي. أتيتُ متأخرًا لأني أوصلت بابا إلى هايبر – ماركت جديد في منطقتنا وتركته هناك ليرجع وحده. صَعِدنا على عَجَل، وحدث أن السلم الكهربائي كان مُعطلًا، وعلينا الطلوع بالمصعد، وأنتِ تعرفين أني لا أحب المصاعد.

اندفعتُ خارجًا لمَّا تردَّد الباب في الانغلاق وطَلعتُ على السلم المُعطل ليوبخني عمال الصيانة. تجاهلت الأمر لوقتٍ لاحق.

كان الفيلم الكوميدي سخيفًا وساذَجًا بشكل غريب. لم أضحك ولا مرة. فقط ابتسمت مرتين أو ثلاثًا، وأنتِ تضحكين كأنك محرجة بجانبي وما زلتِ باردةً وبعيدة..

– اصبري. حسبتكِ ستنصتين إليَّ أخيرًا!!

ما أنا راغب في قوله إن تلك العبارات التي خرجت من فمي لم يكن أبدًا في نيَّتي توجيهها إليكِ..

خرجنا أخيرًا وبعدها حدث أن أشرتِ لحذائك الرياضي الأبيض استعدادًا لدخول قسم الألعاب، كما لو كنت تفصلينني بحذائي الأسود عن خُططكِ. كأنك ترفسينني به. فانقضَّت عليَّ كل ذكرياتي المُهينَة.

ما دَخْلُ ذلك فيما قلته لكِ من كلام لا يصحّ؟ أنا أحاول أن أشرح لكِ لا أكثر وأنت تقاطعينني بنفاد صبرك.

إذا انتبهتِ ستعرفين أني انقضَّت عليَّ ذكرياتي المُهينة، وأني لم آتِ للسينما منذ خمسة عشر عامًا، لكني أتيتُ من أجل ألَّا أرفض لكِ طلبًا. لم أرفض لكِ طلبًا واحدًا وإذا قلتِ غير ذلك فأنتِ غير صادقة.

حسنًا، حسنًا، سأرجع للموضوع. في تلك اللحظة تفتَّق ذهني الأحمق كأُتوبيس نهري بعد ضيقي من تركي لبابا، والمُول لأول مرة، وموقف المصعد، والعمال، والفيلم السخيف، وبرودك وبُعدك عني، والحذاء الرياضي الأبيض، أن أطلب منك كلمة على جنب.

حقيقي، كَمْ أنا غبي! كنتُ أريد عقد هُدنة سلام، مشغولًا بألا يُلاحِظ الآخرون أن هناك خَطْبًا ما بيننا، حتى إني لم أنتبه كَمْ أنتِ مشحونة ومُتحفِّزة ضدي!

لا أحاول إلقاء أي لومٍ عليكِ، أنا جئتُ هنا لمجرد أن أشرح الأمر وأعتذر..

ما أودُّ قوله إني استكملتُ كلامي وردودك العصبية المُقاطِعة ترمي الشَّرَر فيما هو بالأساس ينتظر الانفجار. ثم هوب! انطلقت من فمي تلك الإهانات التي ردَّدتُها على مسامعك، والتي أنَّبني عليها ضميري ليلتَها وأرسلتُ معتذرًا..

– ما حدث قبل ذلك؟

ما حدث قبل ذلك يستحق بعض الشرح، فيبدو أنك تفهمينه بشكلٍ مختلف عما أفهمه: تكلمتِ عن رفضك أن تنزلي لنأكل معًا، وأني غضبتُ من ذلك، أو شيء من هذا القَبِيل، لم أفهم قصدك حينها.

لكني أحب أن أؤكد مرَّةً أخرى، أنه بغَضِّ النظر عما فعلته فأنا نادم عليه الآن، فأنا أتظاهر بكوني أحمد التبَّاع وعندي قطتان تزعقان فيَّ حين تجوعان. بالتأكيد تعرفين هذا. ولذلك استغربتُ جدًّا اتهامك لي بالغرور!

كَمْ من المرَّات أسررتُ إليكِ أني مجرد أحاول حماية هشاشتي من الكسر؟ أني لا أحتمل حتى لكمة عادية من أحدٍ قريبٍ منِّي؟

ثواني فقط.. ما أبغي قوله هو أني تلقَّيتُ ثلاث ضربات منكِ: ضربة تدريبيَّة، كما أخبرتِني فيما بعد، ثم ضربة سوء فهم كما أتضح حينما تحادثنا، ثم ضربة ثالثة لا استيعاب لي لأسبابها على الإطلاق! وكانت في نفس يوم عتابنا وتصالحنا على الضربة الثانية!

كنتُ موجوعًا منكِ، ولا أفهم ماذا يحدث، فقررتُ أن أكتفي وأبتعد. لكني رجعتُ بعدها وضعفتُ حين تقابلنا في المول، وبدلًا من عَقد هُدنة عبَّرتُ عن ضيقي بجُملٍ قاسيةٍ وجرحتكِ. أعرف الآن أني مخطئ. كان يجب فقط أن أُصمت وأتجاهل الأمر..

– صحيح، وأنا لم أُرِد أن أصالحكِ الفترة الحاليَّة نهائيًّا.

لكن في اليوم الثاني لانسحابك بعد يوم المُول، رأيتك مصادفةً من وراء زجاج الكافيه الذي أعمل على 'اللاب' داخله، واقفةً بالكمامة تنتظرين دورك أمام ماكينة سحب النقود، لا أعرف ما دَهاني لكنِّي أغلقت 'اللاب' وجمعتُ أشيائي دون تفكير وخرجت، لم أعرف ماذا ينبغي أن أفعل، فكرتُ أن ألقي عليكِ التحيَّة، لكنك كنتِ تستديرين إلى الماكينة لحظتَها فتراجعت.

بكيتُ كثيرًا في البيت. كنتُ في حالةٍ غير مفهومة من عدم التوازن هذه الأيام، حتى بالنسبة إليَّ. يأتيني شعور عنيف ومؤلم بالحَسْرة يَجْثمُ على صدري إلى أن أبكي. أحيانًا حتى دون أنتبه، فقط أشعر بخدِّي مُبللًا لأكتشف أن عيني ممتلئة بالدموع.

كي أتعامل مع تلك الحالات كنتُ أمشي لمسافاتٍ طويلة حتى يُنهكني التعب. بالتدريج استوعبتُ أني أمُرُّ بنوعٍ من الانهيار العاطفي، بعد كل ضغوط وجروح السنة الماضية التي فتحت فمها مرَّة واحدة داخلي، وأني أنزف من كل ناحية كضحية حادث أُتوبيس نهري اصطدم بحزنٍ هائل. جروحٌ تجاهلتها مُداعبًا شاربًا وهميًّا أبدو به 'شبَه ظُباط الشرطة'. كان مجردَ كبتٍ نموذجيٍّ لم أستطع الاستمرار فيه.

وكما كنتُ أحمقَ في اندفاعي الأرْعَن، كنتُ أحمقَ أيضًا أن أُنزل ذراعيَّ في بداية مباراة ظننتُ شريكي فيها قد سلَّم لي رقبته،

وبغطرسة المتفوقين تركتُ وجهي في العراء ليوجِّه لي لكمةً قاضيةً وأجدُني مطروحًا أرضًا والشَّاربُ الهزليّ قد طار..

– اليوم التالي، جلستُ بعد انتهائي من العمل في الحديقة أمام بيتي، لعلَّ شمس الشتاء تخفِّف عني. رأيتكِ تنزلين من التاكسي. لا أعرف إن كنتِ قد رأيتِني أم لا. فكرتُ للحظةٍ أن أناديَكِ وأقترب منك، لكني خفت من ردَّة فعلك، وأنا لن أحتمل أوْهَى شيء.

نعم، بالضبط، ذلك هو اليوم الذي أرسلت لكِ فيه رسالة أقول إن رؤيتك مرتين متتاليتين علامة – وأنا رجل أحترم العلامات والصُّدَف – على أنه الوقت المناسب للاعتذار.

لم تردِّي بالطبع. والباقي تعرفينه.. كما تعرفين تمامًا أني لم أفعل هذا مع أحد غيرك، وأني أتفاخر بقدرتي على القطيعة والتمادي، أني لا أحتمل أن أترجَّى أحدًا. مع ذلك، فقد عرفتُ خطئِي، لدرجة أني لما صادفتُ أحمد الذي قاطعته أربع سنوات، تحادثنا لساعةٍ نسترجع ما فاتنا كأن ليس بيننا ضغينة، وأرسلت لأدهم أطمئنُّ عليه بعد خصام بيننا منذ شهر، وحتى جارنا الذي مرَّ شهران لم يَزُرْنا أرسلتُ له وتقابلنا..

– بالمناسبة، تذكَّرتُ شيئًا جيدًا فعلتُه لأجلكِ، برغم نفيك التام الغاضب باتصالنا الأخير.

لا، ليس تربيت الظَّهْر والمواساة في ليالي بكائك على المقاعد الحجريَّة البيضاء في الحديقة أمام الكَافِيه، بل وقت اتصلتِ بي وأنت تمرِّين بنوبة فزع، وأنا طمأنتكِ وأخرجتكِ لبَرِّ الأمان سالمة.

تذكرتُ ذلك اليوم، حين انتابتني نوبةُ قَلَقٍ وعَنَّ لي أن أتصل بكِ..

- لمَ ألححتُ على مقابلتك وأصررْتُ على قول كل هذا؟

لأني لستُ إنسانًا سيئًا إلى هذه الدرجة. لأنك أوحشتني. ولأني آسف حقًّا. هل تتصورين بيشو بهذا السوء فعلًا؟

لا، أنا لستُ مريضًا. فقط كورونا خفيفة. الكمامة تخنقني كما تعرفين.

الأُسْطَى والصَّبِي

ألمٌ بين فخذيَّ. تَعلق هذه النكتة في رأسي منذ الصباح. حتى وسط يوم العمل المُزدَحم والمُرهِق، أجد لحظاتٍ كي أردِّد الـ punch line وأضحك. يحدث هذا أحيانًا مع بعض النِّكات أو الجُمل المضحكة في حوارٍ ما. تَعلق بذهني أيامًا أردِّدها في سرِّي أو بصوتٍ عالٍ وأضحك بمفردي.

أبحث عنها في الإنترنت فأجد لها ثلاثة نسخ. الأولى زمنيًّا لا تذكر أن العامل صبيّ، والأُسْطَى بمنزله من جرَّاء تعب حدث له. المشكلة في تلك النسخة أن العامل يُفترض أنه بالغ فمن الصعب ألَّا يعرف الجملة التي تُقال قبل صلاة الجماعة، في النسخة الثانية يذهب الأسطى إلى المسجد القريب ليصلي، وحين يُرفَع النداء ينهار الصبي. مشكلة تلك النسخة هي لو

كان النداء يُذاع على الملأ خارج المسجد، فلابد أن الصبيَّ قد سمعه مرارًا، كما أن النداء نفسه يُقال عادةً داخليًّا بين الإمام والمصلِّين. أما النسخة الثالثة، وهي الأكثر كمالًا في رأيي، والتي ظهرت بعد سنوات، مُطلِقةً فيضًا من الـ memes والـ comics هذه المرَّة، فإن الصبي نفسه يذهب ليصلي في المسجد، فيما يبدو للمرَّة الأولى، وحين يشير الإمام أن يستقيموا ينفجر بالصراخ وسط المُصلِّين المُصطفِّين، وهو موقف أكثر قوةً ومفارقةً مما لو كان شخصًا بالغًا أو كان جالسًا أمام الورشة: صرخة صبي ساذَجة تخترقُ صمت ما قبل الصلاة..

لا أتعامل مع هذا الألم – بين فخذيَّ – بحَكٍّ سريعٍ يهدئني في النهاية، بل أداعبه حينًا وأتركه ينخسني حينًا أخرى، لأرجع وأحكُّه من جديد، وتحت أطراف أصابعي ما هو أكثر من النَّدي. حينئذٍ أعرف أني مُستعدة. أنادي عليه لأقول له بنبرة معينة إني جوعانة، هذه هي كلمة السر بيننا. لم يَخلط بين جوعي الحقيقي وجوعي الاستعاري من قبل، يلتقط فورًا نبرة صوتي وغالبًا ما كان يستجيب. يقول إنه سينتهي من عمله خلال لحظات ويرجع. أقول له ألا يتأخر. يبتسم ويخرج. يعمل آسِرُ في البيت منذ بداية الكورونا العام الماضي، وبدا أن الأمر يُناسبه حتى إنه حين خيَّروه بين العمل في مقرِّ الشركة والمنزل اختار المنزل.

يأتي ويُمدِّد جانبي على السرير، يسألني عن يومي فأقول

ليس سيئًا، فقط بعض الضغوط في العمل بسبب الإجازات والسفر للمصيف، ومرض أحدهم المفاجئ بالفيروس وعزله. تراكمت المهامُّ ونحن مطالبون بالتغطية. حكم القوي. يقترب مني ويقول: "أنتَ اللي قوي" ويقبِّلني قُبلةً خفيفةً على شفتي. أبادله القبلة واضعةً يدي على كتفه.

في تلك اللحظة، أقرر دون سابق إنذار، أنه اليوم الذي سأتشجع وأطلب منه ما أريد. يبدو مزاجه جيدًا. وأنا أيضًا. وتلك بالتأكيد فرصة سانحة. العقبة الآن كيف أقولها له. أسأله هل فكَّر في التغيير قليلًا. يستفسر في ماذا. أقول فيما نوشك على فعله. يُرجِع رأسه على الوسادة ويضع ذراعيه تحتها ويسألني ماذا أريد تغييره، فأقول إني أفكر في إضافة بعض الـ spices. يلمس ساعدي بأصابعه ويمشي على جلدي بخفَّة، سائلًا أي نوع من الـ spices. "شوية عنف كده". تتَّسع عيناه وشفتاه: "عنف إزاي يعني؟"، يقولها ويده ما زالت على ساعدي. "يعني شوية تكتيف، شوية ضرب، كده.." . أضع فخذي على فخذه وأُقبِّله في رقبته. "هي حاجة kinky شوية على ذوقي بس ماشي". أَعضُّ رقبته عضَّةً خفيفةً وأصعد لأذنه بلساني وأهمس بها. يعتدل في رقدته وبنرفزة يسألني هل جُننتْ. يبدو عليه الصدمة. أُحبَطت كثيرًا.

أصارحه بأن هذا شيءٌ أريد تجربته منذ فترة طويلة، وقد تطلَّب الكثير لأستجمع شجاعتي وأقوله بعد زواجنا، فلا يبدأ

بالـ slut-shaming معي بسبب شيء لا يؤذي أحدًا. يردُّ بأن الأمر ليس عن الأذى لكنها مسألة مبدأ. "إيه اللي جاب المبدأ في السرير يا آسر، أنت هاتعملي فيها محمد صبحي؟" يصرُّ أن هذا الطلب ضد مبادئه، ويعتدل ليجلس تجاهي ويقرر الهجوم، قائلًا إن هذه الرغبة من آثار الخضوع الطويل للاستعباد والقهر اللذين تعرضت لهما المرأة في مجتمعنا، وأني مبرمجة عميقًا داخلي وعليَّ أن أتخلص من ذلك الخضوع.

أعتدل وأقرر الهجوم بالمثل، شاعرةً أن الندى قد بدأ يجف، أسأله وهل هو ليس مُبرمجًا مثلي وهو يـ mansplaining ما المفترض أن أرغب به ولا أرغب، عارفًا ما بداخلي أكثر مني، وعارفًا مصلحتي أكثر مني، وأني لست واعية بتأثيرات المجتمع عليَّ مثله، وفي حالة خضوع عميقة سيأتي هو ليحررني منها؟

يخبط قبضته بمرتبة السرير، وهي الحركة التي يفعلها حين يتوتر أو يغتاظ. يعرف أن ذهني حاضر أكثر منه ويغيظه ذلك في مجادلاتنا، أستطيع الرد بالتفصيل والترتيب بشكلٍ آنيّ، في حين يحتاج هو وقتًا كي يصيغ أفكاره ويشكلها بشكلٍ مقنعٍ وحصيف.

يقول إنه لا يصدق أني أتهمه بالذُّكُوريَّة وأنا من طرحَتْ لتوِّها هذا الطلب الغريب، الذي لا يَفْرِق، بالنسبة إليه، عن التي تقول إنها تلبس النِّقاب عن حُريَّة اختيار، متناسيةً أنها ترمِّز

نفسها كشيء يجب تغطيته، وأنه مرتبط بمنظومة رجعيَّة تسيطر على سلوك المرأة وملبَسها وحياتها.

ابتسم. لقد جاء إلى ملعبي. أفرش شعري على كتفيَّ العاريتين، وأسدِّد ناحيته: وما الذكورية غير أن يقول الرجل ماذا على المرأة أن تلبس وكيف تتحرك وماذا تقول؟ إن المرأة حُرَّة أن تمشي عاريةً أو تلبس نقابًا أو حتى خيمة، ما خصَّ الرجل في ذلك؟، فليهتم هو بجسده ويترك جسد المرأة لها. وبفرض حتى أن كلامه صحيح، وهو فرض خطأ، فهذا role playing وليس حقيقة، يحدث بشكل مؤقت وبرضانا نحن الاثنين، ولا يعرفه أحدٌ غيرنا. فما المشكلة أو العيب في هذا؟

يحمرُّ وجهه. ولأول مرَّة يُدرِك أنه ما زال يرتدي نظارته على وجهه، فيخلعها ويضعها على الكمودينو بجانبه. يفتح هاتفه وينظر فيه وهو يقول بصوتٍ خفيض: "بُصِّي يا مروة، أنا مش هاعمل القرف اللي بتقولي عليه دا، ولو اعتبرتيني ذكوري اعتبريني عادي أنا موافق، وياريت بَقَا نفضَّها سيرة."

يريد أن يُنهي النقاش! لكنه يعرف جيدًا أني لا أتراجع حتى الانتصار الكامل أو الانهزام التام، وبالتأكيد يتوقع استمراري وردي عليه. أنبس بردِّي بالفعل لأدرك بعدها أنه، حسنًا، رد over قليلًا، لكنه هو مَن استفزني، إنه إذا كان غير موافق على فعل ذلك فسأجد مَن يوافق.

يلتفت إليَّ في حدَّة. لا يقول شيئًا. ينظر فقط في عيني مُطوَّلًا كأنه يتعرف إليَّ من جديد أو يحسب كلامه جيدًا. ليمسك بعدها وسادته ونظارته ويخرج من الغرفة دون رد.

ما يخطر على بالي ريثما يخرج أنه ربما كان هناك علاقة بين الأسطى والصبي، كان هذا شائعًا فيما مضى، ولعلَّه إلى الآن. علاقة تحدث للمرَّة الأولى كما كنت أريدها اليوم من آسر، ثم تتطور إلى حميميَّة تتجاوز التعريفات والتصنيفات التي جاءت بعد ذلك. حُب أو مودَّة عميقة بين الطرفين، محورها العِشرة والعمل والتواصل الجسدي، ومسرحها حيِّز الورشة الضيق. هذا ما قد يفسر حُرقَة الصبي حين جاءه خبر الأسطى، فمن يقوم برد الفعل الدرامي هذا لفَقْده رَبَّ العمل، الذي في الأغلب كان يضربه ويهينه ويذلُّه لتفاوت القوى بينهما؟

أحتاج الأمر مني وقتًا، وسط فراغ الغرفة، والهدوء الطويل الذي تلا خروج آسر، بعد التصاقها في ذهني طوال اليوم، حتى أدرك في النهاية أن النكتة عن الموت.

ليسَتْ فتَاةً صَغِيرة

الذي يَنحتك بألهبته الحارقة، يَجرح ويُداوي؛ في الفن كما في الحرب، يصنع السِّحر والخُدَع؛ حامل الحِكمة ومُشتِّتها؛ ألوان الحياة نفسها..

عليكَ أن تعلمَ أنه يكره الانتظار، لذا يُرسل أنبياءَه للتذكير، ويفرِّق بين الأصدقاء والأهل؛ لن يرحمك، لأن 'إيروس' ليس إله رحمة، بل سيختم سِمَتَه على جِلدك كخيطٍ من الدم، ويأخذك حيث لم تذهب من قبل؛ وحين ينتهي منك، يبدأ دومًا من جديد، فتُخبَر ذلك: إنَّه الهدية والعقاب!

*

في منتصف اليوم حكيت لتوفيق على الهاتف الجزء الأدبي من حُلْم الليلة السابقة. كان أقرب إلى دُعابة؛ دار نشر معروفة نشرَتْ طبعةً أخرى من كتابي الأخير، بعنوان مختلف وبقَطْع أكبر حجمًا وأردأ صناعة. كنتُ في حفل التوقيع ومطلوب مني أن أقول كلمة. تحدثتُ عن رداءة الطَّبع، وتساءلتُ هل أخذوا الإذن مني أو من دار النشر الأصلية لإعادة النشر. كان الحضور مستاءً من كلامي، هذا قبل أن رأيتُ نفسي وسط جَمْعٍ وحدَّستُ أنه يوم عيد.

بعد المكالمة أمسكتُ قلمًا وورقةً وخربشتُ لأرتب أفكاري. في النهاية وصلتُ إلى أني لا أحتاج أن أغيِّر شيئًا وأن الانتحار غير المقصود في الحلم لا يعني اليأس في الواقع. فليحدُث ما يحدث.

*

تبدأ قصتي حين تعرفت إلى ك. في اجتماع الكنيسة، أو دَعْنِي أقول اسمها كاملًا حتى لا يتم تصوُّرها كذَكر قبيح الصورة من براج، فهي جميلة الملامح بلمسة شقراء، واسمها الكامل كريستين.

لا، ليست هذه بداية قصتي، لم تلفت كريستين نظري في البداية: شابَّة جامعيَّة صغيرة تعامُلي معها أبويُّ الطابَع، وإن

تحول بعد ذلك، تدريجيًّا، إلى نوعٍ من النَّكْش المتبادَل والمناطحة اللُّعوب في مباراة بِنْج – بونج مستمرة؛ سخرية ومزاح ومقالب صغيرة.

كنت أحضر تلك الفترة اجتماعات كنيسيَّة مختلفة كي أعثر على شريكة مناسبة، وأين غيرها سأجد شابَّة مسيحيَّة عزباء في مدينة كتلك؟ كحقيقة إحصائيَّة، هذه الاجتماعات تَحوي أكبر عدد من المسيحيَّات العزباوات في مكانٍ واحدٍ سويًا. كانت المحاولات السابقة مُحبِطة، لكنِّي تعلمت الكثير.

كما قلتُ، في الأسابيع الأولى لم تشدني كريستين. ربما ما جَذَب اهتمامي وقتها هو لا مبالاتها اللاهية، لا عن ترفُّع، بل ربما عدم إدراك. لا تهتم بالمغازلات المُبطَّنة ولا يبدو عليها الفهم حين أتودَّد إليها. زاد من تعلُّقي القسوةُ الطفوليَّة التي كانت أحيانًا تتبادر منها في المزاح، قسوة تأتي تحديدًا من كونها تثق أنها تستطيع أن تتحرك في العالم دون أذى يطولها أو عنف مضاد يكسرها.

سخرت مني مرَّةً لأني أفرد ظهري في الصور – أفعل ذلك كي أظهر أكثر صحةً وأقل بطنًا – لأكتشف بعد ذلك أنها تفعل الشيء نفسه في صورها، بل وتبالغ في رفع الرأس وفرد الظهر، لا أعرف تأثرًا بي أم تفعل ذلك من البداية، فتلك الوضعية تليق بشخصيتها وتُلخِّصها؛ هذا الافتخار الواثق والساذَج بالذات.

مثل كل تجاهُل أنثوي، نجحت غَفْلتها في سحبي تحت رحمة جهلها الذي ربما كان مُتعمَّدًا، لا أعرف. لكني لم أدرك أن هناك شيئًا ما إلا ونحن ننزل السلم في مرَّة بعد الاجتماع وغنيتُ بصوت مسموع، دون انتباه مني، ما كنت أدندنه منذ الصباح: *"نازلة تملَى من المنَّير/ بيضا حلوة بنهد صغير"*، فسألتني بفضولٍ مازح: يعني إيه "نِهد"؟

*

يُنشِد الكورس في سِفْر نشيد الأنشاد، وكالعادة دون أي مقدمات، قصة إخوة يتساءلون عن حل مشكلة عملية غريبة نحن لم نُمهَّد لها: *"لنا أخت صغيرة ليس لها ثديان. فماذا نصنع لأختنا في يوم تُخطب؟"*، ثم يتقدم أحدهم، يبدو أنه الأكثر عمليَّة بين إخوته، متحدثًا بلغة النجَّارين والبنَّاءين وإن كان يتخللها الحسرة وقلَّة الحيلة: *"إن تكُنْ سورًا فنبني عليها برج فضة. وإن تكن بابًا فنحصرها بألواح أرز"* .. ما لنا وهذه العائلة وتلك المشكلة العائليَّة ونحن وسط قصيدة حب مُقدَّسَة؟!

تتدخَّل شولوميت، بطلة القصيدة، في هذا الاستنجاد الأسري وتطلق تعليقًا، لا عن المشكلة، بل عن نفسها، عن جسدها تحديدًا. يُحرِج التعليق الإخوة وأختهم المسكينة، ويجعل من يقرأ يبتسم رغمًا عنه: *"أنا سورٌ وثدياي كبرجين"*! مبالغة كارتونيَّة فَخُورة تخرج من شابة تعتز بنفسها بحق. تضيف شولوميت إليها بعد

ذلك تشبيهًا جميلًا: *"حينئذ كنت في عينيه كواجدة سلامًا."*

يأتي جمال هذا التشبيه من تكلفة الحرب الباهظة في هذه المجتمعات الرَّعَويَّة؛ ما أهم وأغلى مِمَّن يجد سلامًا بين متحاربين؟ كنتُ أتمثَّل في مراهقتي قتالًا موسعًا بالسيوف والدماء تتناثر في كل مكان، ثم تدخل المشهدَ شابةٌ بصدرٍ ناهدٍ ذي شَمَم وجمال استثنائي، يجعل كل المحاربين يتركون أسلحتهم ليتأملوه مَشدوهين، ومن مباغتة الوَجْد يعمُّ السلام وتصبح أنشودةً بينهم.

*

كنَّا نتناقش كذكور على القهوة في أمور الحُب والجسد، قال توفيق إن الصدر عضو مهم لا يمكن الاستغناء عنه، خصوصًا في حالة الزواج، فهو علاقة مدى الحياة. في تلك اللحظة عرفتُ أني أحب كريستين. لم أفرح كعادتي كلما بدأتْ قصةُ حب، كنتُ بالأحرى حزينًا. في البيت فتحت موقع البورن المُعتَاد، أذهب مباشرًة لأجزاء الرضاعة، أشاهدها وأغلق الفيديو وأذهب إلى فيديو آخر، مداعبة ورضاعة وأغلقه، لأغلق الموقع برُمَّته مُغتمًّا.

اليوم التالي كنتُ عند كومار، صديقي وجاري الخمسيني الذي يسألني كلما قابلني أين زوجتي، وإذا كان هناك واحدة في الطريق. ويضيف دومًا إنه عنده فضول أن يرى مَنْ سأتزوج،

لأبتسم وأرد كل مرة: "ليس بعد"، لكني بالتأكيد سأعرِّفه إليها إن وجدتُها. فيخبرني إن الزواج المتأخر سيئ لأن الفجوة تتسع مع الأبناء ولا تجعل الواحد يتمتع بهم في صحته، كما أنه يريد أن يرى أطفالي قبل أن ينتهي عمله في مصر ويرجع إلى بلده. حين يقول ذلك أتحيَّر داخلي إذا كنتُ بالفعل أريد أطفالًا. أنا أحب الأطفال لكني لا أستطيع تصوُّر نفسي أبًا. أشعر أني طفل يضطر أن يسلك كشخص بالغ في الحياة. كما أن قدراتي المادية لا تتيح لي مثل هذه الرفاهية المُكلِّفة، وهو ما يزيد أمر ارتباطي تعقيدًا، مَنْ تقبَل ألا تنجب بعد زواجها في مجتمعٍ كهذا؟!

بعدما سألني هذه المرَّة، أشار إلى بعض الصابون الأخضر على طاولة صالته، وقال إنه قد أتاه من الهند، من خلال معارفه، وهو مصنوع يدويًّا من زيت الزيتون. أضاف وهو يضحك إن العزَّاب والعازبات عندهم يستحمون به فيتزوجون في وقت قصير، كما أنه يجعل رائحة أجسادهم حلوة فتجذب الجنس الآخر، ودعاني أن آخذ واحدة. تناولتُ واحدةً منها وأنا لا أميِّز إن كان يمزح أو يتحدث بجديَّة، لأنه أحيانًا ما كان يعطيني أشياءَ أتته من 'كيرلا' زائدة عن حاجته، أو كنوع من تهادِي الصداقة المتبادل بيننا، لكنني، على أيَّة حال، تحمَّمتُ بها تلك الليلة قبل أن أنام.

*

في يومٍ مُشمسٍ على 'الرُوف' اشتركتُ مع بقية أعضاء الاجتماع في ألعابٍ مثل التي تُلعب في رحلات اليوم الواحد. عن قربٍ كان وجهها كبيرًا ومُستديرًا وممتلئًا بعينين متحمستين. كانت اللعبة هي 'عروستي'، ومن المفترض ألَّا أسمع الاتفاق الذي يجب أن أحزِّره، فبقيت تتحدث إليَّ في لوثة، بلا انقطاع، عن عدم حفظي لـ 'سلام الملائكي' بجانب أشياء أخرى تَهرع للخارج من فمها. ابتسمتُ، حاولت أن أُبطئ سرعتها بإخبارها أنها على وشك أن تكفُر. ظلَّت تتحدث بحرارةٍ أسعدتني، خاصةً بعدها، حين اعتبرت ذلك كردٍّ مماثلٍ على حماسي غير المتوقع تجاهها: حين تُعجب بشخص تعكسه كمرآة. عيونٌ واسعة ولسان مُتحمِّس. أُهدِّئها.

خلال الأسابيع التالية لاحظت تكرار فورتها تلك: غضب أو حماس أو ضحك؛ فورة هيستيريَّة جعلت مرَّة أختها تحتضنها وتُقبِّلها على خَدِّها كي تهدأ. أعزيت لتلك الفورة سريعة الظهور والخفوت السببَ العميقَ لانجذابي، فعندي نفس الفوران العاطفي الذي يتخذ شكلًا هيستيريًّا ليهدأ بعدها بسرعة، غالبًا دون أن يلاحظ أحد.

*

مع مرور الوقت أصبحت عملية حضور الاجتماعات أثقل وطأة. ليس فقط لأنها اجتماعات أسبوعية، أي إيقاعها بطيء

للغاية لما أريده، وليس فقط لاختلاف الأمزجة بيني وبين مَن يحضرونها بانتظام، لكن لسبب لم أتوقعه، وهو سخف ما يُقال ويُتداول فيها.

تخاف الأقليَّات من ذوبانها في محيط الأغلبية التي تعيش وسطها، وهو الشعور المترسِّخ عميقًا في لا وعيها، فتتحصَّن في هُويَّةٍ تمايزها، تدفعها باستمرار لتكون أكثر صلابةً وثباتًا كي تحميَها من مخاطر الذوبان. هذا بجانب وضعها القَلِق كونها محل مساءلة وتشكُّك أخلاقي وإنساني دائمين، الأمر الذي يقيِّدها بوضعٍ دفاعي مُتحفِّز يصبح عائقًا حقيقيًّا لتطورها.

يظهر ذلك بوضوح في مسار اللاهوت المسيحيّ الشرقيّ الحالي، فنرى أن الكنيسة الشرقيَّة، تحديدًا المصريَّة، أغلقت 'باب الاجتهاد' اللاهوتي منذ القرن الرابع، نظرًا للضغط التاريخي الذي تعرضتْ له، المُغَاير للمسار التاريخي الذي مرَّت به الكنيسة الغربيَّة، ودفعها لتطوير نفسها لمواكبة التطور الإنسانيّ والفكريّ في عصور النهضة والتنوير والحداثة وما بعدها.

رغم ذلك، يَفوت على الأقليَّة، والأغلبية أيضًا، التأثيرات المتبادلة التي تتسرب عميقًا وبشكلٍ خَفيٍّ في تشكيل الهُويَّة وتجلِّياتها. ففي أكثر من مناسبة، خلال مناقشات الاجتماعات المختلفة، فوجئت بهيمنة مفهوم 'العدل' في الفهم اللاهوتي العام ووضع قيمة 'الحُبّ' على قدم المساواة مع القيَم الأخرى!

غَلَبة صِفَة 'العدالة' كصفة مركزيَّة للألوهة هو تأثُّر جَليّ بالفكر الإسلامي، الذي يضعها كهدف أساسي للشريعة: أن يأخذ كُلُّ ذي حقٍّ حقَّه؛ الرب والعبد. يمكن فهم هذا التأثر أيضًا في سياق الشعور بالغبن التاريخيّ والاجتماعيّ، مما يَدفع للتمحور حول مفاهيم 'العدل' و'الجزاء' و'التعويض'.

بالرجوع إلى شخص المسيح، والمسيحيَّة في بداياتها التأسيسيَّة، نجد اتجاهًا راديكاليًّا في تفكيك مفهوم العدالة اليهودي ومنظومته الناموسيَّة والطقوسيَّة والشعائريَّة، من خلال أقواله وممارساته، من وَعَظاتٍ ارتجاليَّة حرَّة ومخالطات مع الزُّنَاة والعشَّارين والخَطَأة والمنبوذين، وفعل الخير يوم السبت، والصلاة في أي مكان، إلخ.. ومقابلة ذلك من الكَتَبة والفرسيين والكهنة بمحاولاتهم المتكررة في التأكُّد، أو إظهار، أن يسوع لا يفهم اليهوديَّة، وغير حافظ للناموس، أو مُهرطِق ببساطة. وفي كل مرة يظهر أن المسيح دارس جيد للكتب لكنه يقدمها بتفاسير تقدميَّة وراديكاليَّة بناءً على مفهوم 'المحبة'، في محاولته النهائية لإحلال 'الحب' كصفة مركزية، بل جوهريَّة لله، مما يجعل انتشال تلك الراديكاليّة ودفعها مرَّةً أخرى للتساوي مع بقيَّة القيَم تحلُّلًا أنطولوجيًّا لجماعة المؤمنين بصفتهم مؤمنين برسالة يسوع.

اختصارًا، في المسيحية، الحُب لا يساوي العدل. هذا كلام يضايقني سماعه لكن لا بُدَّ من تحمُّله كي أتزوج في سَنَتِي.

*

واجهتُ سريعًا مشكلةً أخرى أكبر حين ارتبطت بكريستين: كريستين تعطي الانطباع بأنها في السادسة عشرة من عمرها! رأيتُ، مُسبقًا، الاتهامات المتتاليَة بأني في علاقة مع قاصر، بل مع لمسة المُبالغة الشائعة حاليًّا سيتم اتهامي بالبيدوفيليا، ومما يزيد الأمر سوءًا أني كاثوليكي!

صممتُ أن تكتب تاريخ ميلادها على الفيسبوك وتجعله ظاهرًا. استغربَتْ طلبي في البداية ثم بشكلٍ غريزي رفضَتْ. لكريستين طابَع برِّي يذكِّرني بقطتي الأثيرة، وما زاد من رجحان كفَّتها سريعًا أني ضعيف أمامها – أنا ضعيف أمام من أحب، قاضيني! كانت تبلغ ثُلُث حجمي، بوجه وجسد فتاة بلا هرمونات كافية، وتحسم كل شيء بعنادٍ شَرِس.

لا ترد أيامًا لترسل لي فجأةً أنني أتجاهلها، وأنها تحتاج أن تسمع كلامًا حلوًا. تلغي الميعاد بيننا وأنا في الطريق قائلة إنها "مِصدَّعة" وتحتاج أن تنام. حُجتها الرسمية في كل شيء هو النوم. إذا لم تردَّ فهي نائمة، إذا أخطأت فمن قلَّة النوم، وإذا أرادت التهرُّب تقول إنها تريد أن تنام. كنتُ أشعر بالإهانة كلما ذكرت سيرة النوم، وبشكل عكسي كنت أزداد تعلقًا بها. يبدو أن كلام توفيق الساخر بأن الأقباط مازوخيون صحيح.

اكتشفت بعد وهلة أيضًا أننا نقيضان في أشياء كثيرة، ومنها مسألة الأكل. أستطيع بسهولة أكل فرخة كاملة، وكثيرًا ما أفعل

ذلك، أما هي، فبعد أن تلحَّ كي تأكل، تقضم دبوسًا مغمسًا بالكاتشب وتشبع. كنت أسخر من 'أكل العصافير' هذا وأسألها إن كانت تريد طَبَقًا صغيرًا من الماء، وهي تسخر بالمقابل من نهمي الشديد وأحيانًا من سمنتي، سائلةً الناس أن يخمِّنُوا وزني وماذا آكل على الغداء وهي تشير إلى بطني الكبير. وَضَح لي في نفس الوقت طبيعتها المُتحفِّزة وميلها للتشاحُن، على عكس طبيعتي التي تميل للمسالمة وتجنُّب الصدامات. كنت ألاحظ ذلك في مواقف بسيطة أتناساها، لكن في إحدى المرات تعاركَتْ مع عامل سوبرماركت، اعترض لزميله على صوتنا العالي مع أصدقائنا؛ تدخلتُ لأقول لها أن تتوقف عما تفعله، فصرخت في وجهي أني لم أسمع ما قاله، وأتدخَّل دون فهم، ورحلَتْ غاضبة. اقتربتْ سيدة أربعينيَّة تجرُّ عربة تبضُّعها، لتنصحني بأن أكون أكثر حزمًا مع أختي الصغيرة لأنها في مرحلة خطرة. مشيتُ دون أن أرد عليها.

*

التنظيم الاجتماعي الجنسي الذي يجعل الإنسان يمارس الجنس للمرَّة الأولى في سن الخامسة والعشرين، أو الثلاثين، أو أكثر، أي في منتصف حياته الحيوية تقريبًا، يطبع عليه مجموعة من التأثيرات التي تشكِّل شخصيته. أحد هذه التأثيرات ظاهرة لا يتحدث عنها أحد بشكلٍ كافٍ، وهي ظاهرة الاكتئاب عند المراهقين

المصريين بسبب قلَّة أو انعدام الممارسة الجنسيَّة، المُصاحبة غالبًا لغياب جانب عاطفي فعَّال، فيحدث إحباط جنسي وعاطفي يؤدي إلى عُسر المزاج والاكتئاب.

تنمو بشكل تلقائي ميكانزمات تكيُّفيَّة وتعويضيَّة تبقى مستمرةً بعد ذلك كأسلوب حياة، أبرزها الإفراط في تناول الأطعمة، والاعتماد سلوكيًّا عليها كمصدر للراحة والعزاء والمتعة. ولذلك، فالمشاريع التجارية الأنجَح في مصر هي المطاعم، وأغلب أنشطة المصريين الترفيهيَّة تتمحور حول فعل الأكل.

الأمر الجوهري الذي يتم إغفاله أيضًا في هذا التنظيم الجنسي، هو كَوْن الزواج الشكل الرسمي والحصري لممارسة الجنس، وأحيانًا كثيرة العاطفة. وبذلك، عمليًّا، يكون الزواج إجبارًا لا خيارًا مناسبًا، وتُقدَّم التنازلات، المؤقتة غالبًا، في شكل مواءَمات وترضيات وخُدَع، من أجل الحصول على الاحتياجات الإنسانيَّة الأساسيَّة.

*

دخل أبي عليَّ الغرفة وسرد لي قائمة يبدو أنه تدرَّب على حفظها: "السِّمنة والأكل غير الصحي، والمخدِّرات، والتدخين، والكحول، بيضرُّوا الحياة الجنسية". في البداية تجاهلتُه، فأنا أعرف رسائل الواتساب التي تثير اهتمامه ويحب مشاركتها شفويًّا مع

الآخرين، لكن لعادته في تكرار الكلام، حين دخل الغرفة وردد القائمة للمرة الخامسة، أصابتني نوبةُ ضحك.

*

تُطالعنا قصةٌ أخرى مفاجئة في نَشيد الأنشاد بعد قصة إخوة الأخت المسكينة. تقول القصة، وهي أقرب إلى إشارة لنظام الجباية الزراعي في ذلك الوقت: *"كان لسليمان كَرْمٌ في بعل هامون. دفع الكرم إلى نواطير، كل واحد يؤدي عن ثمره ألفًا من الفضة."* تتدخل شولوميت، بنفس النَّزَق والافتخار السابق: *"كَرْمِي الذي لي هو أمامي. الألف لك يا سليمان، ومئتان لنواطير الثمر."* الربط في نظري بين القصتين هو أن برجيها الفضيَّيْن، امتلآ وفاضا أمامها مثل الكرم في موسم الحصاد، تدفع لسليمان ألفًا، وتزيد عليها، كَرَمًا منها، بسبب كرم الطبيعة الفائض معها – أكاد أُجزم أن المترجم كان في ذهنه الكَرَم وهو يكتب "الكَرْم" – مائتان لحرَّاس الثمر. بالطبع يحتاج هذان البرجان إلى حرَّاس؛ كَنْز السِّبْط وفرحة القبيلة.

*

كنتُ وأنا صغير، ربما بسبب ربط تلك الظاهرة بالأمومة، أو بتأثير من نشيد الأنشاد الذي كنت تقريبًا أحفظه غيبًا في مراهقتي، أن كِبَر الصَّدر يرتبط بصفتَي العَطَاء والحنان. جهاز

التغذية والحنُوّ وافرٌ ومترام، يستعد في كل لحظة للإمداد والكَرَم. كنتُ لا أستطيع أن أتخيَّل امرأةً كبيرة الصدر قاسيةً أو مُقتِّرة، كما أن العكس كان بالنسبة لي أيضًا صحيحًا، المرأة المستَوِية أو صدرها ضامر، قاسية وجافَّة وغير حَنُون. طبعًا مع الوقت تكسَّرت نظريتي، وبعد انتشار السيليكون والسَّلاين أصبح الأمر عبثيًّا.

تلك النظرية كان لها تفريعات جانبيَّة، مثل أن الصدر الواقف المدبب يدل على غرور صاحبته وثقتها بنفسها. الصدر المُفتَرق يدل على رحابة الصدر والتقبُّل. الصدر المتدلي يدل على الهدوء والطيبة والخضوع. الصدر المقوَّس – أسمِّيه الصدر الموزة – يدل على اجتماعيَّة ورُقيّ صاحبته، الصدر البِطِّيخي يدل على الجلافة والسذاجة والشَّبَق، إلخ..

هلاوس فَرَاسة تشريحيَّة جنسيَّة، رُدمت منذ سنوات طويلة، أحيتها داخلي كريستين مرَّةً أخرى. لم أصارح نفسي، في البداية، أني مقتنع بداخلي أن هذه العصبية والقسوة سببهما نقص هرموني عندها؛ الهرمونات الأنثويَّة لم تكوِها وتُرقِّقها وتسوِّيها وتضخّ النعومة والحنان فيها وتبعث الانشراح في صدرها. لا يوجد أي إحساس أمومي، أو، في الحقيقة، يظهر سريعًا ليختفي. فقط يبقى قُطبَا القسوة والندم، الاعتداء والاعتذار. صبيةٌ تغار من زميلاتها في المدرسة، وترعى الحقد بدلًا من أرنبين صغيرين

مبشرين بالخير، كيف تكون واجدةً سلامًا؟

غرقتُ في التفكير لأيام لا ترد فيها على رسائلي. هي طيبة، بل وأخلاقيَّة، وهو أمر أُقدِّره كثيرًا، لكنها سريعة الغضب والسَّوْرة. مع ذلك، عميقًا داخلي، شعرتُ بأن ذنبها الحقيقي هو أن صدرها لا يترجرج وهي تصيح مُتشنِّجة، تاركةً إياي بلا وسادات حانية أشتكي لهما قسوتها معي.

*

وصلني أطرافُ كلام توقعته أني أواعد فتاة في الثانوية، وأني أستغلها عن طريق فارقٍ السن بيننا. حاولت بشتى الطرق أن أوضح لمن حولي أنها تبلغ 25 عامًا وخريجة جامعيَّة، لكن كأن لا أحد يسمع ما أقول؛ يوافقني من أمامي ثم أكتشف لاحقًا أنه يردد نفس ما يدور من كلام معتوه عني.

بدأ الأمر على الإنترنت بكتابة إحداهن عن ازدواجية المعايير في أن يتركوا كاتبًا يُغرِّر بالبنات الصغيرات 'يسرح ويمرح' كأنه لم يفعل شيئًا. لم تذكر أي أسماء في المنشور، لكن لحقه، بفارق صغير، منشور آخر من نوع "أي شخص يتعامل أو يدافع عن هذا الشخص سأقوم بحذفه وحظره من عندي" وذكرني بالاسم. سرعان ما توالت المنشورات، وتحولت إلى تغريدات مصدومة وعنيفة على تويتر. تُدووِلت صوري مع كريستين مُشوِّشين وجهها بجانبي في أحد الاجتماعات وفي اليوم الترفيهي على الرُوف.

اتصلت بها أترجَّاها كي تُظهر تاريخ ميلادها، أو تفتح صور يوم تخرُّجها، لكنها لم تردّ على الاتصال. أرسلت لها مرارًا على 'الواتساب' و'الماسنجر'. ربما مرَّ أسبوع كامل قبل أن تصلني رسالة قصيرة باردة منها، تبلغني أنها مشغولة الفترة القادمة ولن تستطيع أن تراني. شعرتُ بالإهانة الشديدة، لا أستطيع حتى الحصول على امرأة ناقصة النمو!

في خلال هذا الأسبوع تصاعد الأمر إلى حد جنوني؛ اتهمتني واحدة لا أعرفها بأني تحرَّشتُ بها أثناء لقائنا في مكتبة بفيصل! كنت أريد الرد بأني ربما لم أرَ في حياتي شارع فيصل، ولو كنتُ في فيصل بالتأكيد كنتُ سأنشغل بأشياء أخرى غير التحرُّش، أخرج من نوبة الهلع مثلًا! لكني أعرف أن أي رد فعل، حتى لو كان اعتذارًا، يزيد النار اشتعالًا مثل الحَطَب في محرك بخاري لا يقف. كانت صوري تؤخذ منها ما قد يبيِّن أني ذئب بشري، ويُكتب عليها تعليقات عنيفة وقاسية للغاية. في ظني، أي صورة تنفع لمثل هذا الهدف، فقط خذ صورة عشوائيَّة لأي شخص واكتب عليها "مُتحرِّش/ مجرم/ قاتل/ مُغتصِب" وسترى جودة النتيجة! إذا كانت الملامح غليظة وعنيفة، فهي تشرح ما توحي به، لو كانت الملامح بريئة أو مسالمة، فهي تكشف الباطن المستتر لهذا الشخص، وتكشف القناع المخادع الذي يَبرُع في إظهاره للناس وأثناء التصوير. لاحظت ذلك في صور

المتهمين على وسائل التواصل الاجتماعي والقتلة المتسلسلين المشاهير في الأفلام التسجيليَّة: الكلام يصنع سياق فهم الصور الفوتوغرافيَّة واستيعابها، الصورة ترتبط بالإطار الذي تُقَدَّم فيه وتكون جزءًا منه. هذا الكلام يعرفه، بالبديهة، أي واحد، لكن يتجاهله الجميع وقتَ الانقضاض.

بعد قيام الصفحات النِّسْويَّة بإصدار منشورات مكثفة عني، صنعوا صفحة خصيصًا يطالبون فيها بمحاكمتي بانتهاك الأطفال والاغتصاب والتحرُّش، وتصوير منشورات سابقة لي وتحريف معناها كي تناسب الهدف الجديد. نشروا حتى أجزاء من أعمالي الأدبية بها مقاطع جنسية لكي يشيروا إلى انحرافي وتهتُّكي. قدَّم أحدهم محضرًا رسميًّا ضدي بالفعل. كان صندوقي الشخصي ينفجر بالرسائل. أغلقت حساباتي الافتراضية كلها. لم أردَّ على اللعنات والشتائم التي تصلني، ولا حتى رسائل "تاخدها وتربِّيها على إيدك" و"ما تعلِّمني بتشقطهم إزاي" المريبة.

حاولتُ أن أصفِّي ذهني. قضيت يومي في القراءة على القهوة أو في البيت. رغم محاولتي لم أستطِع مشاهدة أي بورن. يتصل بي أصدقائي وبعض الفضوليين يسألونني ماذا حدث، وكل مرَّة أضطر أن أشرح من البداية الموضوع كله، فينصحونني أن استمر بإغلاق حساباتي حتى تمرَّ العاصفة. الكلام سهل، فهم ليسوا في وضعي، ولا يشعرون بهذا الإحساس بأن الجميع

يكرهونهم ويتمنون لهم الموت. حياتي كلها توقفت، الفضيحة تمزقني بإحساس العار، وكل يوم يزداد خوفي أن يهاجمني أحد في الشارع. أبحث في معاملة الجيران عن أدنى تغيُّر في كلامهم أو نظراتهم: هل عرفوا؟ هل مرَّ على أحدهم أو أحد معارفهم منشور عني؟ أنا متأكد أنهم لا يعرفون شيئًا عن كوني كاتبًا، لكن تأتي الشهرة أحيانًا بما لا تشتهي السفن.

ربما مرت عشرة أيام حتى استطعت مشاهدة بعض البورن. كلها أفلام لنساء وشابَّات بصدور وافرة جميلة الرسم: قِباب عَفيَّة خيرها بالزوفة؛ يُرخين مِشدَّاتهن كأنهن يكشفن عن كَنْزٍ خفيّ، يدارينه بأكُفِّهن فلا يستطعن أن يغطينَه بالكامل.

*

رأيتُها. لكن هذه المرة ناضحة بأنوثة فائرة تجعلها تتعرَّق وتحرِّك عينيها بحساسيَّة قَلِقة وتغمر حركاتها بالشَّبَق. وبسبب القوة التي اكتسبتها حديثًا قامت بشيءٍ بسيطٍ لكنه بدا لي خارقًا: دخلت الممرَّ الخارجيّ شبه الفارغ إلا منِّي، وشخص أو شخصين آخرين، حافية تدبدب رجليها بوقعٍ شهواني على البلاط وتطلب بصوتٍ عالٍ من صبي القهوة زجاجة مياه بإلحاحٍ مرح. يرد الصبي في صعوبة بكلمات مبتورة نتيجة توتُّره من أنوثتها المتفتحة ورغبتها الطافحة في علو صوتها الزائد. الطرقعة على البلاط بثِقَل رجرجة جسمها داخل قميص كاروهات أحمر وأسود

واسع وبنطال جينس صار ضيقًا، جعلتني أبتلع ريقي في هذا الجوِّ الحارِّ المفاجئ في موعده. كونها حافية في مكان عام أعطاها لمسة طفولية بريئة زادت من إيروتيكيَّة وجودها المُقتَحِم. عُري قدميها جعلها كلها عارية. لن أذوق حلاوتها أبدًا. أتذكَّر، هكذا قلتُ لنفسي: لن أذوق حلاوة كريستين. أنَّت عليها أحشائي. هممتُ بأن أدعوها لكنها أدبرت خلف السور الذي قدمت منه. قمت وسرتُ تجاهه. ما جاوزته إلا قليلًا حتى وجدتُها. لمحتني فابتسمت ابتسامةَ لَعُوب. كنتُ على خلاف الواقع واثقًا. أمسكتها من كتفيها وألصقتها بالحائط، تنهدَتْ بقوة وعمق وأغمضَتْ عينيها كأن ارتطامها بالحائط أفقدها الوعي. أدخلت لساني في فمها فالتقطته في عطش. فتحتُ سوستة بنطالي وأخرجته منتصبًا، شدَّتْ بنطالها لأسفل بيدها اليسرى. عند دخولي شعرتُ بلذعة حزن تحولت سريعًا إلى غضب. كنت أمزقها بعنف. سال خطٌّ من الدم على فخذها. انتبهتُ ومَنيٌّ ساخنٌ بين رِجليَّ.

*

كان الأمر محرجًا في الاجتماع؛ أنا وكريستين أكثر اثنين مشاغبين وكثيرَي المزاح مع بعضهما، وبيننا لعبة مستمرة فيمن سيقدر أن 'يُلبِّس' الآخر مسئولية تحضير الكلمة الروحيَّة في الاجتماع القادم، الآن نتجاهل بعضنا إلا في أقل الرسميات مثل التحية وغيرها، مما يصنع جوًّا من التوتر المكتوم.

الغريب أني في البداية لم أشعر بشيء. فقط وأنا راجع يكون مزاجي متهيجًا وعاطفيًّا، لكن بعد ذلك كنت أشعر بغُصَّةٍ كوني أراها سعيدة ومكتفية كأنَّ شيئًا لم يحدث بيننا. طلبتُ تحضير الكلمة في الاجتماع التالي مما أثار دهشتهم، لأن الجميع يتهرب عادة من تلك المسئولية.

فكرتُ أن أتحدث عن مركزية الحُب في المسيحيَّة بناءً على عِظات القديس أوغسطينوس عن رسالة يوحنَّا الأولى. لكن وجدتُ نفسي أقرِّر التحدث عن أجورافوبيتي. ذهبتُ الأسبوع التالي وتكلمتُ بانفتاح وصراحة. لاحظتُ كريستين التي لم تَقُم بأي ردَّة فعل، كأنها لا تعلم شيئًا، رغم أني عَرفتُ أنها عرفت. ولذلك قطعت علاقتها معي دون حتى أن ترجع لي وتستفسر عن الأمر: إن كان حقيقيًّا أو لا، إن كان له حَلٌّ أو لا. فقط أرسلت بأنها مشغولة الفترة القادمة. بالتأكيد تحتاج إلى الكثير من النوم!

سألوني أسئلة عديدة كي يستوعبوا الموضوع، مع أني بسَّطت كلامي قدر استطاعتي. نظر بعضهم لي في أسى. رغم ذلك، كنت أتوقع ما هو أسوأ. هذه أول مرَّة أتكلم عن مشكلتي الخاصة بشكلٍ علني على الملأ. بعدما انتهيت شعرت بأن حملًا ما انزاح عني. شعرتُ نفسي خفيفًا ورائقًا.

توقفت بعدها عن الانتظام في الاجتماع. كان الاجتماع الأخير المتبقي من بين اجتماعات الكنائس الأخرى، سواء الكاثوليكيَّة

أو الأرثوذكسيَّة، التي كنت أحضرها لمدة عامين. لم أحضر في الكنائس البروتستانتيَّة لرفض أبي المشاركة في دفع تكاليف زواج غير راضٍ عنه، لأن طرفه الآخر 'غير مسيحي' كما قال. إلا أنه تخلى عن هذا الأمر مؤخرًا، حين لاحظ أنه لا يوجد في 'الكنائس التقليديَّة' نفع. لكن جاء ذلك متأخرًا، فأنا مللتُ من لعبة الاجتماعات، وشعرتُ بأني أعطيت تلك السِّكة حقها. كنتُ أحضر هذا الاجتماع في سبيل لقائها هناك، الآن أحضره من حينٍ لآخر لأني أحتاج إلى مساحةٍ ما خارج سعيي هذا، أتواصل فيها مع طائفتي، ومع جانبٍ روحانيٍّ أبذل جهدًا كبيرًا للحفاظ عليه. كما أني استلطف الناس هناك. طيبون وسُمَحاء.

حين حدث ذلك كله، تنامَى شعورٌ داخلي لم أقدر أن أحدِّده بدقة. ثم حلُمت هذا الحُلم الذي يحوي الانتحار. قلقت بعد استيقاظي. حسبتُ بالقلم والورقة كل شيء من البداية للنهاية. لم أجد خطأً فعلته، لكني فهمت الشعور الغامض الذي يصاحبني الأيام الأخيرة، فأنا أشعر، في الحقيقة، أني سأتزوج قريبًا! لا يوجد أي سبب منطقي لهذا الشعور، فكريستين خرجت من حياتي، ولا يوجد أخرى غيرها، وقد توقفت عن حضور الاجتماعات كلها تقريبًا. لكني قرَّرت السير وراء شعوري هذا وليحدث ما يحدث.

*

دخلت كريستين المكتب مرتبكة، قلقة، صغيرة كعادتها، وإن بدت هيئتها أصغر من المعتاد. مع ذلك، حافظت على فَرْدِ ظهرها مثلما تحب أن تفعل. كنَّا داخل مكتب كاردينال قادمًا من روما له ثقله وتأثيره على مليار و300 مليون إنسان. تنبعث منه رائحة عطر فخيم ونفَّاذ. له منكبان عريضان تحت العباءة المطَّرزة بالبطانة البنفسجيَّة حول أزراره وكُمَّيه. كان مبتسمًا طوال الوقت وأسنانه بيضاء وسليمة بشكلٍ لافت. أمامه طبَق من المكسَّرات عزمني عليه حين أتيت له كحَلٍّ أخيرٍ، لما عرفت بقدومه في رحلة تَفقُّد إلى مصر.

فور دخولها ورؤيتي قالت إنها لم تفعل شيئًا وأني أضايقها وأرسل لها رسائل كثيرة وبدأت في البكاء. لم يفتح أحد منَّا حتى فمه. رغم إدراكي أنها فعلت ذلك كنوعٍ من الاستباق لأي شيء سيُقال أو يحدث، إلا أنها صعبت عليَّ وأردت أن أقوم وأحتضنها.

بلَّغها مُرافق الكاردينال، وهو كاهن مصري صغير السن، انتدبوه لمرافقته فترة وجوده في مصر، إن الكاردينال يريد لها أن تفكر في قبول عرضي بالزواج، وإنه سيقوم بنفسه بمراسم الزواج باللاتينيّة بناءً على طلبي. ارتبكَتْ أكثر. قالت إنها ستفكر، وإني شابٌّ طيب وإن كنت أكبُرها بتسعة أعوام. قال لها المرافق إن ذلك ليس بالفارق الكبير. فهزت رأسها موافقة. ثم قالت إني

لست كبير السن لكن ليس لي عمل ثابت يضمن دخلًا ماديًّا لأسرة. وهنا سأله الكاردينال ماذا تقول، فترجم له بالإيطاليَّة ما قالته لتوِّها. سكتْ قليلًا، ثم ابتسم وقال ما ترجمه المُرافق بعد ذلك: "إن الله يتدبر شئون رعاياه، وإن أمَّنا العذراء ترعى البيت الذي ملؤه الحب".

هزَّت رأسها موافقةً وغمغمت، ثم ردَّت: ربنا يُبارك، لكنها ترى عقبةً أمام زواجنا، فأنا قد سبق وطلبت يد أختها. تدخلتُ لأقول إن ذلك كان تسرعًا مني، فلقد كنَّا وقت حَظر الكورونا وشعرتُ بالوحدة والتضارُب. ردَّ المُرافق إن المسيح يُرشِد الظروف والعقول لما هو صالح وخيِّر. علَّقتْ بشكلٍ آليٍّ "آمين" وانتظرت أن يكمل كلامه، فنظر إلى الكاردينال الذي سألها إذا كانت موافقة على عرضي بالزواج. بعد الترجمة ردَّت كأنها تحتفظ بهذا الرد في جَعْبتها للنهاية، إني لا أخرج من حدود مصر الجديدة. هممتُ بالرد لكن أشار لي المُرافق بأن أصبر، وبعد الترجمة من وإلى، قال إن الله يدبر أموره بشكل يفوق الفَهْم البشري وتوقعاتنا، وإني قد وعدتُ أن أرى أحدًا يساعدني على تجاوز هذا الأمر البسيط في أقرب وقت.

صمتَتْ تمامًا. سألها المرافق مرةً أخرى إذا كانت موافقة على عرض الزواج مني. هزَّت رأسها موافقة. بعد ترجمة سريعة صاح الكاردينال بصوتٍ عالٍ يتضاد مع مهابةِ منظره:

"بلّيسمو بلّيسمو مولتو بلّسيمو إي مِياي فِيلي!"، ونظر إليَّ وغمز ورفع سبَّابته بإشارةِ 'تَمّ'.

ونحن خارجان بجانب بعضنا، واضعًا يدي على كتفها برفق، أومأَتْ كي تقول كلمة. ملتُ نحوها وانحنيتُ لأصل إلى مستوى فمها. همسَتْ: "عاوز تتجوِّزني؟! دانا هاطلَّع ميتين أهلك!".

حَنَـان

على خلاف كل ما يحدث في حياته مؤخَّرًا، جاءت حَنَان في موعدها. بالرغم من أن ذلك لم يبدُ واضحًا له في البداية. لم يكن اسمها "حَنَان" بالطبع. لكنه أسماها هكذا نظرًا لدورها الحيوي في جَدب حياته بعد انفصاله الأخير. لم تدُم العلاقة طويلًا، مثل علاقاته السابقة، لكنهما بقيا أصدقاء. أحد أسباب ذلك هو حَنَان، فحَنَان والدة فتاته الأخيرة.

من أول لقاء وقد عرف أن بينهما كيمياء أكثر بكثير من ما بينه وابنتها. لذلك حين قال إنه يأسَف لترتيب التعارُف كان نصفَ مازحٍ. كانت تفهمه أكثر وذوقُها في كثير من الأشياء أقرب إلى ذوقه. كان التجاذُب بينهما مثارَ مزاحٍ مع فتاته، وإن في مرة انقلب إلى مشاحنة حقيقيَّة لأن مزاجها كان سيئًا.

قال لفتاته إنها أُمّ 'روشة' وليست مثل باقي الأمهات، وأبدى ملاحظة عن صِغَر سِنِّها بالنسبة للأمومة عامة. فعرف منها أنها تزوجت مبكرًا وانفصلت مبكرًا. قصة حب رومانسية كما الأفلام العربي القديمة أسفرت عن إنجابها، لكن سَرْعان ما ظهر الخِلاف والشِّقَاق. وزواجها الثاني مُؤخَّرًا كان قصيرًا وعنيفًا. من وقتها وهو يمازح فتاته عن أفضلية حب 'الميلفات': خبرة ودلع ولا يوجد مشاكل وتناقضات الفتيات الصغيرات، اللواتي لا يعرفن ماذا يُرِدْن، وطوال الوقت يحاولن إثباتَ شيءٍ لأحدٍ ما. كانت ترد هي بالهجوم على الشباب الصغير، وتدلِّل على غبائهم وخفَّتهم وطيشهم، ثم تكمل كلامها بالهجوم على الرجال جميعًا.

رغم كلامه هذا لم يحاول الاقتراب من حَنَان؛ حفاظًا على مشاعر فتاته وتجنبًا لأي ضعف من جانبه. كان يدرك جيدًا أنه يشتهيها ويشتهي نضوجها. وفي تعاملاته القليلة معها كان يتعمَّد أن يثير غريزة الأمومة فيها. ربما لكي يغلف اشتهاءَه، أو لأنه يحتاج فعلًا لتلك الأمومة التي كانت تعطيها له بشكلٍ مُبالغ وأحيانًا سينمائي.

انتهت العلاقة سريعًا مع دخول الصيف. تواصلت معه حَنَان على 'الواتساب' لتخبره أن ابنتها متضايقة وحزينة. فردَّ إنها أمامها من الوقت الكثير لتعوِّض، وإنها تعرف أن ذلك

الأفضل لكليهما. وافقته وتمنَّت ألَّا تنقطع علاقته بهما، فأكَّد على ذلك من باب الذوق.

بعد مرور شهر تقابلا في كافيه قرب بيتها. جاءت متأخرةً ساعة. اعتذرت بأن الاجتماعات في العمل قد أخَّرتها، وإنها سعيدة بعدم رحيله. قال إنه ليس وراءه شيء وسألها عن ابنتها. أخبرته أنها تتحدث مع شابٍّ جديدٍ ويبدو أنهما مندمجان معًا. تمنى لها التوفيق قائلًا إنها بنت متربية جيدًا.

كانت جلسة خفيفة، تشي بإمكان إجراء مقابلات أخرى دون حساسيَّة. استمرت بالفعل تلك المقابلات – بعد عمل حنان – وانتقلت إلى الدردشات على الهاتف وتبادل الصور والأخبار المضحكة، حتى وجدها تقول له إنها تحسُّ بمشاعر ناحيته، لكنها تشعر أيضًا بالخزي. رد بأنها ليس عليها أن ترى الأمور بتلك الطريقة، فعلاقته بابنتها انتهت منذ فترة ولم تدُم وقتًا طويلًا أصلًا. تفاجأت من رده – وما زال يعتقد أنها مفاجأة مُصطنَعة – وقطعت سيل الدردشة. بقي مستيقظًا طول ليل الصيف الوليد من فرط الحماس، هكذا عرف أنه قريبٌ منها.

في الصباح أرسل لها معتذرًا ونام. حين استيقظ وجد رسائل كثيرة ومكالمات مسجلة على هاتفه. أبلغته أن عليهما التوقف عمَّا يفعلانه. رد بأنهما لم يفعلا شيئًا أصلًا. وطلب أن يراها مرَّةً أخيرة. كانت صياغة الطلب دراميَّة على الموقف، لكن أتى

ذلك بفائدة، لأنه وجدها تقول إن عليه أن يأتي إلى بيتها وليس الكَافِيه، فابنتها خارجة مع أصدقائها حتى آخر النهار وهي بلا أعمال اليوم.

تكرَّرت زيارته للبيت. توقع أن تقوده في الفراش. لكنها، على العكس، كانت تستسلم له تمامًا كأنها بلا خبرة، وتستمتع بكل فعل أو اقتراح يقوم به. بعدما يتشاركان الفراش يملأ بطنَه بطبيخ بيتيّ، يطلبه منها قبل مجيئه خصيصًا، وتضيف هي إليه أصنافًا تحترف صنعها.

لاحظ أن حالة السِّريَّة بينهما كانت تجعلها مبتهجة ومُثارة. لكن، لأنها لا تستطيع أن تخفي أمرًا، بسبب طبيعة شخصيتها، انتبهت الابنة سريعًا. وبعد استجوابات لم تدُمْ غضبت بعنف. اتصلت به سكرانة وهي مع أصدقائها تشتمه، وتقول له إنه مخادع ومستغل، وما يفعله يثير الاشمئزاز والغثيان. لم يفهم سبب نعته بكل ذلك إلا حين تذكَّر ما كانت تحكيه أثناء علاقتهما عن أبيها وما فعله مع أمها. لم يكن يريد أن يؤذيَها بتلك الطريقة، فقال لها إنه يحب حَنَان ويريد أن يتزوجها. ردَّت بأنه مُقرِف ومريض وأغلقت في وجهه.

بعد هذه المكالمة أخذت ردود حَنَان تتأخَّر وتقصُر، واجتماعاتها تُبكِر وتطول، ممَّا أثار قلقه. اتصل بفتاته السابقة وسألها عن أُمِّها. قالت إنها تعمل كثيرًا مُؤخَّرًا ولا تراها إلا مصادفة. لمدة

شهر باءت كل محاولاته في إرجاعها إليه بالفشل، فقرر أخيرًا الذهاب إلى البيت.

صعد إلى الشقة في الدور الثاني ورنَّ الجرس. فتحت الفتاة وسألته ماذا يريد. أجابها إنه يريد أن يرى حَنَان. قالت إنها ليست بالمنزل وستأتي ليلًا. فقال إنه راقب البيت منذ الصباح الباكر وهي لم تنزل من البيت، كما أنها لا تصحو قبل الساعة الحادية عشرة، والساعة الآن العاشرة والنصف. رمى عينه فوجد ملابس وبِدَلًا رجالية على كراسي الصالة. سألها عنها وهو يشير وراءها. قالت دون أن تنظر إنها لا تعرف، ثم ترجَّته: "مَلِكْش دعوة وامشي!". صاح فيها إنه لن يرحل إلا بعد رؤية حَنَان. دفعها من كتفها ودخل. بدأت تبكي وتترجَّاه أن يخرج دون فضائح، فحنان لا تريد رؤيته مرَّةً أخرى، وهذه ملابس زوجها بعد أن رجعت له.

وهو يهمُّ بالصراخ فيها مرَّةً أخرى، خرجتْ حَنَان من غرفة نومها. كانت ترتدي قميصَ نوم أزرقَ خفيفًا طالما أحبه عليها. شعرها مُنسَدِل على كتفيها وعلى وجهها آثار النوم. دونما كلام أخذته في حضنها وقبَّلته على خدِّه. همسَتْ له إنها فعلت ذلك من أجل مصلحته، وعليه أن يفهم ذلك. سَكن وأطرق للأرض ثم طلب منها كوبًا من الماء. دخلَتْ إلى المطبخ وأخذتْ زجاجة باردة من الثلاجة، وكوبًا زجاجيًّا منقوش عليه ورد ملوَّن، وصبَّت وأعطت له. لما شرب الماء مسحَتْ على شعره، وبعدها رحل.

مَوْعِد لَيْليّ

لم لا نُبعِد الجفون عن الطُرُق
الملعونة ونختفي في الليل الأكثر
غموضًا؟
جورج حنين

(الليلة الأولى)

[هو]

وأنا ذاهبٌ إلى المحطة، رجَّحتُ أنها تسير خلفي. لم أُرِدْ أن أنظر. نزلتُ وقطعتُ التذكرة. لم يُصبني التوتر بعد. وأنا واقف، رأيتُها من بعيد بالفعل. دخلَتْ من سَلَّم آخر. بُعد المسافة جعل الموقف كأنه مشهد من فيلم رومانسي. بدَتْ من بعيد كامرأة مَشْغولة. فكرتُ أن أذهب إليها لكن تصورتُ قلقها من أن تظن أنني أتتبَّعها. هذا طريق رجوعي، ومع ذلك لن يكون ظنُّها خطأً.

أصابني التوتر كما توقعت. تراكُم سنوات لم أركب فيها المترو. فكَّرتُ أن أصعد مرَّةً أخرى. كانت مُنهمكة في هاتفها، لكن المترو جاء سريعًا. ركبتُ لأشعر أن المشهد قد انتقل إلى فيلم رُعب. لم أفكر في حقيقة أنها تركب بعد عدَّة عربات، فكرتُ فقط أني لا أصلح لشيء. سَرْعَان ما أخرستُ نفسي. ربما سأراها حين أخرج المحطة التالية. تدربتُ سريعًا في ذهني على كيفيَّة تمثيل المفاجأة، والجملة الذكية التي يمكن أن أقولها فتضحك. خرجتُ ولم أَرَها. وقفتُ أنتظر المواصلة الأخرى في الشارع. ركبتُ الميني – باص من الكوربة. كنتُ غاضبًا. وأتذكَّر أمي. لا أعرف لمَ أتذكر أمي في المواصلات. حتى إني كنتُ أبكي في البداية. مُتحابَّان صغيران يجلسان أمامي. لفَتَ نظري أني أبدو لهما كرجل كبير. تخيلتها مكان الفتاة وأنا مكان الفتى. فشلتُ في إدارة سيناريو لطيف. رجعتُ البيت وغيَّرتُ سريعًا. اشتريتُ بعض الأشياء وأخذتُ مواصلةً أخرى لأصدقائي. أسقطوا لي المفاتيح، وحين لم يفتح واحد منهم، اتصلتُ وصببتُ غضبي عليهم. تفاجئوا من غضبي غير المبرَّر وغير المعتاد. أخبروني أنه باب العمارة المجاور. فكرتُ جديًّا إن لم يفتح فسأعود أدراجي. لكنه فتح فصعدتُ. قضيتُ ليلة شواء وموسيقى وشرب ورقص وضحك. قلت لهم إنها إحدى لحظات حياتي الجميلة. صمتوا ولم يعلِّقوا. كنتُ قد عاهدتُ نفسي أن أقول ذلك بوضوح، فهذا ينفعني في الليالي السوداء. سألني صديقي إن كنتُ قد حسمتُ

أمري في تركي العمل. قلتُ له رغم خوفي من الأمر وتردُّدي منذ شهور، تقرَّر اليوم ببساطة وأنا أعبر الشارع، قبل لحظةٍ من اصطدامي بامرأةٍ غريبة. كانت ترتدي ثيابًا جلديَّة ونظاراتٍ شمسيَّة سوداء في الليل.

[هي]

لا أنام. أو لا أحد يرى نومي. النومُ ضعفٌ. ينبغي ألا تظهر ضعيفًا أمام أحد. سيستغلُّ مَنْ أمامك أول فرصة ليسحقك به. في مهنتي هذه إذا نمت أمام أحد، في الأغلب لن تستيقظ أبدًا. لقاء الفراش يكون عادة مُكثفًا وسريعًا. أشبه بإثبات سُلطة. هكذا أحب أن يكون، وإلا تعقَّد الأمر. مثل ما حدث قبل ساعات حين بكى مَنْ كنت معه عندما ارتديتُ ثيابي وخرجت. كان عندي عملٌ. أعمل في الليل. أحيانًا أدخن سيجارةً بعدها مع شريكي، إذا كان مزاجي رائقًا، كغريمين يتواطآن على المصالحة. توقفتُ عن التدخين. السليمز التي أُدخِّنها توقف استيرادها. الآن أعتمد على الـ 'بُوْد'. لا يفهم الغبي أن نومي المتكرر معه لا يعني أنه امتلكني. هكذا يفكر الذكور، الامتلاك والامتلاك. لا يعرفون المشاركة. كان عليه أن يدَعَ الأمور تمرّ. ويقولون إن الرجال لا تحب الدراما. أكثر كائنات دراميَّة في العالم! غلطتي أني عاودت النوم معه، فهو يفهم ما أريده جيدًا وجسده ناشف

ومَرِن بشكل مذهل. لا أنكر حدوث تعقيدات مع من نمت معهن أيضًا، لكن لأسباب أخرى. في العادة لأن الواحدة منهن ترى أن استطاعتها أن تنام معي تعني أولًا قدرتها على أن تحبني، وبالتالي سوف أحبها. هذا خطأ في التقدير. لأن ليس معنى أن تحب شيئًا أن يحبك بالمقابل. ربما جاء هذا من طفولتنا. عليك أن تحب والديك لأنهم يحبوك. ماذا ولو لم تفعل؟ بعض الأهالي حُثالة البشريَّة. حرفيًّا. القمر كبير الليلة ومستدير، ويعكس ضوءًا بنفسجيًّا رائقًا. مرَّةً أخرى يخرب مزاجي بالأشياء الجميلة: النسمة الصيفيَّة الليليَّة. الفتيات الصغيرات. منظر العشّاق مع بعضهما. لا أعرف لماذا يعطي أي أحد قلبه لأي أحد آخر. هذا أغبى شيء يمكن أن يفعله شخص لنفسه. الحُبّ ضعف. وينبغي ألا تظهر ضعيفًا أمام أحد. بعضهم يتلفت إليَّ. نظرات الليل. أُلاحظ من مسافةٍ كبيرةٍ في المكان، ويمكنك فورًا إحساس التوتر في الأعناق. الأيدي. لمس الأحزمة. إمساك علب السجائر والهواتف. الابتسامات الجانبيَّة الصغيرة. اتساع حدقتَي العين. الصوت المرتفع قليلًا أو كثيرًا. لا أُلاحَظ فقط بسبب لبسي الجلدي الأسود، ولا حتى نظَّارتي الشمسيَّة في الليل. بل بالأساس لأن جسدي مليء في الأماكن الصحيحة، ويجعل الجميع، رجالًا ونساءً، في حالة رغبة دائمة للاقتراب منه ولمسه. أنا لا أتبع أي حِميَة. الحركة. الحركة دائمًا. آكل كل شيء وأي شيء. حين يعرف أحد ذلك يندهش ويكذِّبني. أنا لا أكذب. أكره الكذب لأنه

ضعف. مثلًا كنتُ مضطرة منذ قليل أن أجري، وهو ما يتكرر كثيرًا. اصطدمت بأحدهم. تأسف مرارًا، قائلًا إنه لم يَرَنِي، رغم أني كنت أعدو مُسرعة قُبالَته في هذا الشارع الجانبي، على أمل أن أتوه عن مُطارديّ. كنتُ أنهج بشدة وصدري يعلو ويهبط وأتلفَّت حولي. لا يوجد أحد. لقد فَلَتّ. ربما ظن أني فُزِعت منه وأراد أن يُطمئنني. قلتُ له لم يحدث شيء، وسألته عن أقرب محطة مترو. شاور لي على الاتجاه، وانصرف في نفس الوِجهة، فسِرتُ ماشيةً خلفه. الجري المفاجئ منهك جدًّا أحيانًا. لماذا لم أعمل بمهنة نهاريَّة عاديَّة؟

(الليلة الثانيَة)

[هو]

أعرف ما يُزعجني في الليل. أنني أدرك بأني أعيش حياتي للمرَّة الثانية. أو بالأحرى أتذكَّرها. في أوقات تكون ذكرى مستقبليَّة. تَموج مثل مياهٍ تنسكب في الظلام. أتبضَّع من أجل طعام الأسبوع. مثل مازوخي أستمرئ الألم الذي يسبِّبه لي التسوق في هايبر – ماركت. دائمًا هذا الحِسّ الأخروي من إضاءة النيون الساطعة، وحضور ظلام ما خارج مدى العين، ومنظر الأغراب وهم يجرُّون عربات التسوُّق في نصف بلادة ورِيبَة غير مبرَّرة. هذا التأثير أكيدٌ

وخارقٌ. أعني الألم. ألم دون سبب واضح. رغم أنه يجعل كل شيء واضحًا. مثل أضواء النيون الباهرة على الثلاجات وعُلَب التونة والسردين والمشروبات الغازية والعصائر وأكياس الأرز والمكرونة وزجاجات الكاتشب والخردل ومُنتجات المنظِّفات. ربما لأن الناس يتحدثون إلى بعضهم في وحدات صغيرة. أو الإيمان بشدة بأشياء لا أحد يؤمن بها فعلًا. أتذكَّر ماما، وأتذكر أني لم أتزوج. تحضر في جسدي كله وحدة لا – تاريخية. قبل بداية التاريخ. أو بعد انتهائه. وحدة وحشيَّة ذات رنين فضائي. أعذِّب نفسي وأنا أشتري أشياءَ تافهةً ليلًا. تتكوَّن حول الذكرى طبقة جلديَّة رقيقة. إذا انْضَغَط عليها انفثأت. لكن هي كل ما لديَّ. على مدى اليوم، أخطط ما ينبغي فعله. في الليل، أفعل ما يحلو لي. الثمن باهظ جدًّا – كل تلك الخسارات. كل تلك الليالي. الليالي الرهيبة. كل تلك الأغاني. الوقت الفائت. التردُّدات. الضياع. الهجران. الهجران الكامل. فقدان الإيمان. استعادة الإيمان. اصطياد الإيمان كعاهرة. ككلب نصف مجنون. كل تلك الأثمان الباهظة بشكل لا يُحتمَل. خطوة بخطوة في اليوم يأتي الإيمانُ الذي تترجَّاه مُقنَّعًا بالمجهول. يصبح حتى عندي أملٌ. يُضحكني هذا. في الليل.. الليل فَظاعة لا تنتهي.

[هي]

لن تراني سوى ليلًا. هذه هي الطريقة التي نظَّمت بها حياتي.

أحيانًا يأتيني الإدراك أنني أعيش حياتي للمرة الثانية. أو بالأحرى أتذكَّرها. في أوقاتٍ تكون ذكرى مستقبليَّة. تندفع من الزوايا والأركان مثل مياه تنسكب في الظلام. أشتري حاجياتي في نهاية اليوم لأن الأماكن تكون شبه خالية. الأغراب القليلون يجرُّون عربات التسوُّق في نصف بلادة وريبة غير مبُرَّرة. يُحدث هذا الأمر تأثيره عليَّ بشكلٍ أكيد وخارق. أعني الألم. ألم دون سبب واضح. رغم أنه يجعل كل شيء واضحًا. مثل أضواء النيون الباهرة على أقسام الخُضَر والألبان وأكياس العدس والدقيق والسُّكَّر وعُلَب التوابل ومُنتجات العناية بالبشرة. تحضر في جسدي كله وحدة لا تاريخيَّة. قبل بداية التاريخ أو بعد انتهائه. وحدة وحشيَّة ذات رنين فَضَائي. أنتقي الأشياء التافهة لأشتريَها قصدًا. طوال اليوم، أخطط ما ينبغي فعله. في الليل، أفعل ما يحلو لي. كان اعترافي لنفسي: إنِّي قد خَرِبتُ بلا رجعة. إن علامة اللعنة وُشِمَت على جسدي بالنار، وبها أنتمي إلى سُلالة المطرودين إلى الأبد. عرفتُ فور نظرته لي بعد اصطدامنا أننا ننتمي إلى نفس السلالة الغامضة. مَلعونان يعرفان بعضهما بهذا الوشم. هذه العلامة التي تحطُّ على رؤوسنا مثل قَدَرٍ لا يراه غيرنا، لكننا نراه بوضوح. لا يعني ذلك تضامننا سويًا. على العكس. ينعَزل الواحد منَّا في جحيمه الخاص. نائيًا بعوالم عن الآخر. عن جحيم الآخر. الفهم في حالتنا لا يُثمر تعاطفًا. فقط تقدير صامت. حميمية هشَّة لا تعني أكثر من تسرية عابرة للوقت

الحاضر. كل شيء لا بُد أن يُدفع له. اعتمد فقط على نفسك. هذا هو شعاري في الحياة. أحيانًا يحلُّ إحساسُ الإيمان. لكنه لا يدوم سوى لحظات. أن تؤمن. هذا جميل. لكن أن تؤمن بماذا؟ في عالمنا لا يوجد رَبّ. والمريرُ في غياب الرَّبّ هو أنه لا يوجد مَنْ يَغفر لك. ومع ذلك نُصلِّي حتى يتركنا الله في حالنا.

(الليلة الثالثة)

[هو]

في الشارع الطويل نزلت لأتمشى مع أختي. أرمي عيني لأرى كلبًا يحضن إطارَ سيارةٍ وفي سابع نومة. استغربتُ أن الكلب يفعل ذلك في الليل ولا يوجد شمس. ذهبت ناحيته في حذر وأنا أصفِّر وأصفِّق كي ينتبه. أختي من مكانها حسمت الأمر: دا ميِّت. الكلمة دخلت أُذُني لأرى الماء تحته دمًا، وأنه ليس ضخمًا لكنه متخشِّب ومُنتفخ. نزل عليَّ غضبٌ: لِمَ لَمْ يتقدم السائق 'عجلة' للأمام حتى؟ أختي لا تفهم: خُبِط وجلبوه ناحية الرصيف. شرحتُ المنظر الذي رأيته عن قرب. اشمأزَّتْ. سألتها مرَّةً أخرى: بالتأكيد شعر أنه وطأ شيئًا وهو يرصِف، لِمَ لَمْ يتحرَّك؟ له يومٌ على الأقل. طلبتُ منها أن نبعد عن المكان. تناسيتُ الموقف. هذه ثالث مرة خلال أسبوع أرى حيوانًا ميتًا والناس

تمرُّ وتقف بجانبه بصورة عادية. بعد عشر دقائق من مشينا رأيتُها تهرول مُقبلة. ترتدي بِدلةً رياضية سوداء وسماعات أذن ونفس النظارة وتغرق في عَرَقها. نظرنا إلى بعضنا. أو هكذا توهَّمت. كان صوت الموسيقى عاليًا وهي تمر بجانبنا. قلت لأختي إني أعرفها. سألتني من أين. قلت إني لا أعرفها بل اصطدمت بها مصادفةً في شارع جانبي في 'أرض الجولف' منذ يومين. لاحظتُ أنه تقريبًا نفس اليوم الذي مات فيه الكلب. في نهاية الشارع قررت أن أشرب قهوة من سلسلة مَحَالّ بُنّ تبيعها في أكواب كرتونية صغيرة. أختي لم تطلب لأنها، كما قالت لي، شربت الكثير من الكافيين اليوم. دخلت هي المحل. كان صوت الموسيقى في سماعتها ما زال عاليًا وأوضح في المكان المغلق. تسمع أغاني روك من السبعينيات والثمانينيات. طلبتْ قهوة سادة مثلي. وحين أخرج العامل القهوة ظنَّت أنها قهوتها ومدَّت يدها. لكنه أشار إليَّ مرتبكًا أنها قهوتي أنا. سحبَتْ يدها واعتذرت. ابتسمتُ ثم غمغمتُ. قررتُ لحظتها أن أقول لها إني أعرفها. صمتَتْ للحظاتٍ بدت لي عامًا ثم قالت: Sorry؟ شرحتُ: لقد سألتني عن طريق المترو منذ يومين في أرض الجولف بجانب كنيسة العذراء. ذكرتُ الكنيسة لأعرف إن كانت مسيحيَّة. قالت 'أَها' ولم تعلِّق. فقلت Nice to meet you وانسحبتُ إلى أختي. سألتني ضاحكةً من هذه المُزَّة الجامدة وهل هي مسيحيَّة. جاوبتُ بحِدَّةٍ خرجت مني دون قصد أني أخبرتها منذ قليل بأني لا أعرفها،

بل التقيتُها مصادفةً في الشارع، ولا أعرف إن كانت مسيحيَّة، ولا يفرق ذلك في شيء لأنها في الأغلب متزوجة. ردَّت بأنها غير متزوجة فلا يوجد خاتم على أصابعها. وأضافت بنبرةٍ ساخرةٍ بأنها 'عايشة حياتها'. وأختي تقول ذلك رأيتها واقفةً فجأةً أمامنا. قائلةً بنبرةٍ وَدُودَة إنها تذكَّرتني، وتشكرني على المساعدة، وتعتذر إذا كانت أصابت كتفي بشيء. مرجحتُ كتفي وأمسكتها وأنا أبتسم. قلت أخيرًا لم يحدث شيء رغم أنها كانت خبطة عنيفة 'شويتين'. ابتسمَتْ واعتذرَتْ مرةً أخرى وعرضت أن آخذ نمرتها كي تعزمني على قهوة تعويضًا عمَّا فعلته. كنت أمسك بهاتفي بالفعل في يدي، ففتحته وسجَّلت نمرتها ورننَتُ عليها كي أتأكد من صحة النمرة. رنَّ هاتفها بأغنية روك شهيرة لفريق 'ليد زيبلن'.

[هي]

رأيتُ كلبًا يموت اليوم. انتبهتُ حين جرى ثلاثة كلاب ينبحون سويًا بطريقة غريبة. نائمًا على جانبه على الطين والزرع. بلا حِراك أو رَدّ. بدءُوا يتفحَّصونه في حذرٍ وينادونه ثم يتناقشون فيما بينهم. كانوا يشبهون البشر بطريقة مزعجة. متوترين، بادلوا بين النقاش والمناداة ودفعه بخَطْمهم. فقط نَفَس ضعيف يزداد ضعفًا. جاء بعض العمَّال يرشونه من زجاجة مياه ناحية وجهه. لسببٍ ما،

التدخل الإنساني عزَّاني قليلًا. لكن كل كائن عَرِف ماذا يحدث. دوَّرتُ رأسي. وصلتُ إلى شارع عمَّار بن ياسر وبدأت الهرولة. كان عليَّ أن أزيد لياقتي بعد ما حدث آخر مرَّة. أحب أن أهرول وأغرق في الأغاني. أطالع وجوهًا عديدة ولا أرى أحدًا. رأيتُ كلبًا بمحاذاة الرصيف، متخشِّبًا ومُنتفخًا، وتحته بركة صغيرة من الدماء. ميِّت منذ يوم على الأقل. دهسته سيارة. بعدما انتهيت، قررت أن أخذ كوبًا من القهوة قبل أن أرجع للبيت وأستحمّ. قهوة المحل رديئة لكن المكان الآخر مُغلق اليوم. رأيتُ الشابَّ الذي اصطدمت به. توترتُ قليلًا. يبدو أنه تعرَّف إليَّ. كان مع زوجته وابنهم. كان هناك بعض الزحام في المحل وتكوَّن ما يشبه الصف للطلب. لا أحب الانتظار في الصفوف. يُذكِّرني ذلك بالمدرسة. أُبغض المدرسة اللعينة. انتهيت من الطلب وتعويضًا لانتظاري وجدت القهوة قد جُهزَت سريعًا. لكن اتضح أنها تخص الشاب. اعتذرت ووجدته يخبرني أنه يعرفني. لم أتوقع أن يقول ذلك أمام زوجته. ذكَّرني بواقعة الاصطدام فلم أعلِّق. آخر شيء أريده هو تأكيد على أني كنت هناك في ذلك الوقت. فهمتُ سريعًا أنها صديقته أو أخته. كانت تنظر إليَّ وتتحدث معه وهي تبتسم. لا غيرة عاطفيَّة هناك. كنت سألتفت وأنتظر القهوة لكن خبط عيني الوشم على ساعده الأيسر. هو نفسه. البجعة بأجنحتها السوداء! ذهبتُ إليه وأخبرته أنني أتذكره. أعطيته رقمي لعزومة قهوة في وقتٍ لاحق. لاحظ هو السلسلة

في رقبتي وسألني عن الصورة الصغيرة في القلادة اللَّوْزيَّة. أبلغته أنها صورة ماما في شبابها. بدا عليه التأثر. انطباعي أنه عاطفي. لا أحبُّ العاطفيين. يحبونك بسرعة ككلب شارع. ويكرهونك قبل أن تجلس. كل مرة يتعلَّق جروٌ ما بذيلي. أتخيَّل كراهيته لي بالفعل. ربما كانوا على حق.

(الليلة الخامسة)

[هو]

هكذا الأمر. حين أكون في البيت لا أريد النزول. وحين أخرج لا أريد العودة. سألتهم في نهاية السهرة بخصوص الموضوع الذي يشغلني من بدايتها. أغلب الآراء كانت ألا أرسلَ شيئًا وأنتظر. رغم ذلك تشجَّعتُ وأرسلتُ إليها عبارات غَزَل. ردَّت على مغازلتي بابتسامةٍ خَجْلى. ذكَّرتها بوعدها فقالت إنها مشغولة قليلًا. هذا ما توقعته. سألتها كنوعٍ من إرساء النهاية متى يمكن أن تكون متاحة. أجابت على غير المتوقع بعد يومين. إذن هي لا تتهرب. هي مشغولة بالفعل! اتفقت معها على المكان والميعاد. رفضت أن يكون صباحًا فهي تستيقظ متأخرًا. اتفقَتْ على نفس اليوم ليلًا. الحادية عشرة. استغربتُ تأخر الوقت لكنِّي لم أرفض بالطبع. ما سيطر عليَّ من وقتها هو سؤال لماذا نظَّارة شمس؟

هل هي عمياء ولذلك ارتطمت بي ولم تتعرف إليَّ في البداية حين قابلتُها بعد يومين؟ لا. هي رأت إشارتي لاتجاه المترو ومشت ورائي. وكانت ترى العامل وهو يمد يده بالقهوة. كما أنها لا يبدو عليها عمومًا أداء العُميان. لماذا إذًا ترتدي امرأة ثلاثينيَّة نظارةَ شمسٍ في الليل؟

[هي]

ليلة طويلة ومُرهقة. ختمتُها بلقاءٍ عنيفٍ فرَّغت فيه كل إرهاق وضغط العمل. العمل اللعين. أفكر في تقاعد مبكر يريحني من وجع الرأس هذا. هذا إذا لم أتقاعد قبلها رغمًا عني. الجنس الحلو يحلّ أعصى المشاكل ويجعل مزاجي رائقًا. أرسل لي شابٌّ الاصطدام يسألني عن الموعد. أقرب ليلة متاحة هي الأربعاء. حاول في البداية أن يكون الموعد صباحيًّا. لا يعرفني بعد. لا أحد يراني سوى في الليل. كنتُ قد نسيته وقررت تجاهله. لكنَّ مزاجي الرائق جعلني أوافق. نصف ساعة وأذهب بعدها إلى المعادي. هناك حفل خاص يحتاج إلى تأمين. مهمة سهلة واحتمالية حدوث شيء ضعيفة. لا أعرف لمَ طلبوني لتلك المهمة البسيطة. لكنه عمل في النهاية. الحياة صعبة على الكل.

(الليلة السادسة عشرة)

[هو]

أحيانًا تجيئُني أفكارٌ لا أستطيع السيطرة على حدَّتها أو تجاهلها. كأن أقتل أحدًا. أو أضاجع امرأةً اشتهيتُ كَتِفَها أو كَفَلَها. هذا الصباح كنتُ أريد أن أضرب ذات الجلد الأسود. أضربها حتى تخرج دمًا من كل جزءٍ في جسمها. كيَقْطِينةٍ لم أتعب فيها ولا ربيتها. أحيانًا ما يفلت الجنون، بشكلٍ مؤلم، على هيئة خُيالات متصاعدة الحِدَّة والعنف، رغم المحاولات المستميتة لشَدِّ اللجام. خيالات لا تتوقف إلا بسبب الألم الفسيولوجي. تتصل بشكل مفاجئ تخبرني أنها ستمرُّ عليَّ في الحادية عشرة. لا أعلم لمَ تثق أني حُر وغير مشغول. دائمًا بعد الحادية عشرة ليلًا. تمرُّ عليَّ بالـ 'بايك'. تعطيني خوذة. تحب منطقة الكوربة والميرغني دونًا عن باقي مصر الجديدة. قالت إنها آتية من زايد. هذا سَفَر فِعْليّ. نجلس عادةً في كافيه أو بار يفتح حتى ساعات الصباح الأولى. أحيانًا أشكُّ أنها تحبني أو معجبة بي. أكثر ما يجعلني أشكُّ في الأمر إنها، رغم مظهرها القوي والشرس، تكشف لي عن هشاشتها وضعفها. لحظات نادرة الحدوث لكن بحسب شخصيتها فهي تعني الكثير. تقول لي إنني أُقلِّل من شأن نفسي. تقول أيضًا إن ما أعاني منه

هو أوهامٌ في رأسي، وأني 'أشتغل نفسي'. هل هناك ما يتحكَّم في الإنسان غير أوهام في دماغه؟ بعض الأحيان أخجل من تباين ملابسنا ونحن جالسان معًا. ملبسي مقارنةً بها باهت ومُمّل وغير مُعتنًى به. الغريب أن هذا أكثر ما يُزعجني في مقابلاتنا الليلية. أحبُّها؟ لا أعرف، لكني بالتأكيد أشتهيها. تثير خوفي، كأنها نذير خطر وشيك. لا أعرف ماذا تعمل ولا تريد أن تقول لي. تعمل ليلًا فقط وفي مهنة 'قصيرة العمر'. مازحتُها قاصدًا مرةً وقلتُ إن هذا الوصف ينطبق على الدعارة، فقالت بغموض إن عملها ليس بعيدًا عن ذلك، وأفرغت 'شوت' التيكيلا في جوفها. كان مزاجي اليوم سيئًا. واحد من الأيام التي أشعر فيها أني سأدرك شيئًا. لا أعرف ما هو لكنه أمر جوهري للغاية. وأنا أتمشى مبكرًا الليلة وسط حديقة قرب البيت، هجم عليَّ كلب، ورأيت كلبين يُخرجان كلبًا من حفرة في الطين، مُغطى به كاملًا. من الواضح أنه كان مدفونًا. كلب من الاثنين كان ينظِّف بطنه المنفوخ بلسانه ويشمه مع كلب آخر، ويرجع ليلحس الطين من فوق بطنه. كان يبدو مثل قالب طيني على شكل قلب ثخين. وأنا أسير بعيدًا عن الحديقة بعد مشهد الكلاب الجنائزي والغريب، بدأت في الإدراك تدريجيًّا أن أيامي أصبحت تتمحور حول مقابلتها. إنها اللحظة المهمة في اليوم كله. أستيقظ في الظهر مثلها رغم أني لا أريد ذلك. فأنا شخص نهاري. بدأت أُبصر ما لا أريد رؤيته. حياتي نكتة. حرفيًّا. نكتة عبثيَّة. نكتة وقد تحوَّلت إلى حقيقة. نكتة

سوداء ولسببٍ ما مُنفَلِت أصبحت فجأةً واقع حياة فرد. نكتة، تكرارها، والإصرار عليها، جعلها مُرعبة. كل هذا قديم – جديد. ما يجعلني مُستهلَكًا. تعبتُ من اتهام نفسي. من البقاء حزينًا. كلنا نحاول أن نحيا حياةً ذات معني، لكننا – كلنا – نتوقف عند نقطة ما. من منَّا يمكن أن يكون نفسه؟ من المحظوظ الذي يستطيع سماع هَمْس الملائكة؟ متقززًا من الحزن، رأيت أمامي امرأةً تمرُّ مُتهدِّلة وحزينة. شعرتُ بنفسي وبها كائنات قاهرية. وأن تلك المدينة تصنع أشخاصًا حزانَى. مُتهدِّلين ومُنْحنِين. غضبتُ. غضبتُ بشدة من نفسي أني لا أستطيع الرحيل. أني لم أرحل. في لحظةٍ غير محدَّدة جاءني اليقين أني سأقضي بقية حياتي في مدينة ساحليَّة شبه خاليّة. سأقضي بقية حياتي حُرًّا دون ماضٍ أو شعورٍ طاغٍ بفوات الوقت. سأموت بعيدًا. كما تموت الأفيال. بكرامة.

[هي]

بعد انتهائي من مَهمَّتي في زايد، واقترابي من 'البايك'، وجدتُ كلبًا نائمًا وفي يده 'كانيولا' مربوطة. كان نائمًا في سلام رغم أنه مكان مفتوح. كلب كبير الحجم. يبدو أنه زعيم المنطقة الخالية هنا. دخَلتْ أنفي رائحةُ عفونةٍ بشعة. كان منفوخًا وفكه مفتوحًا ومُعوجًّا. داسته سيارة في الأغلب. ركبت 'البايك' وذهبت إلى

مصر الجديدة. هذه واحدة من الأيام التي أشعر أني سأدرك شيئًا. لا أعرف ما هو لكن أمر جوهري للغاية. 'البُوْد' لا تعمل فنزلت واشتريت سجائر. هذه المدينة الملوثة ستدمر رئتي قبل أن تفعل السجائر. فكرتُ في لقاءاتي معه. هو شخص ذكي ويفهمني ولا ينزعج من تقلّبي المزاجي السريع الذي يربك الجميع. العلاقة بيننا مستحيلة. لكنها أيضًا الوحيدة الممكنة. يحمل هذه اللعنة على جبهته والوشم في ذراعه. كنَّا مثل رسولين التقيَا في مكان مظلم لنتبادل أخبارًا بشعة. هو الوحيد الذي أحكي له على سجيَّتي رغم حذري الزائد. لا أقول له كل شيء بالطبع. لكن ما يستطيع أن يتحمله. يبدو لي أصغر من سنِّه. يُرجِع هو ذلك إلى أنه بلا خبرات كافية. لا أرى ذلك. أبلغته أنه يقلل من شأن نفسه. وبعد تفكير طويل، نظر أثناءه بعينيه في الهواء كما يفعل حين يفكر بعمق، وافقني. أضفت أنه يُوهِم نفسه بعقدة الخوف من الذهاب إلى أماكن بعيدة. بالعكس، أنا لا أحب سوى الأماكن البعيدة والمجهولة. متعة الاستكشاف والمغامرة والتعرُّف على أماكن جديدة. شعرتُ أنه حزين الليلة. سألته عما به. حكي لي عن أيوب وجملةٍ ما في الكتاب المقدَّس استوقفته. كلامه أثَّر فيَّ لكني شعرت أنه شخص يقضي على نفسه بالبقاء داخل متاهات. قلت له أن يسافر ويرى الدنيا. فقال إنه يريد فعل ذلك لكن لا يعرف متى. نصحته أن يرجع ويلمَّ ملابسه وينطلق. أشار إن ملابسه لا تعجبه. حين يزيد وزنه

يعاقب نفسه بأن يلبس ملابس قبيحة. قلت له إنه يبالغ أيضًا في زيادة وزنه. فأنا أكره هؤلاء السّمان. أشولة الدُّهْن المُقزِّزة الذين يتنفسون بصعوبة ويضحكون بوُدٍّ زائد. حقيقي، أشمئزُّ منهم ومن طبقات الشحم والغِلّ التي تتراكم فوق أعضائهم وتحت جلودهم المشدودة حتى التمزُّع. أبقار تتغوَّط كل ست ساعات. يأكلون حتى يحتقروا أنفسهم، ولا يتوقفون أبدًا. وكلما عانوا مرضًا ظنوا ببعض الأدوية أن هناك الأسوأ. لا يوجد ما هو أسوأ منهم. سألني ماذا أفعل في حياتي، بجانب عملي الغامض الذي لا أحكي عنه. مازَحني مرَّةً أن عملي الليلي يشبه الدعارة. أظنه نوعًا من الدعارة فعلًا. يُدفع لي كي أستخدم جسدي في التعامل مع جسد آخر. النتيجة واحدة: شهقات أو صراخات ذروة. لفتني كلامه أن سِفر أيوب يقول إن الله لا يعير بالًا بأحكام البشر. إن الله لا يعير بالًا بالبشر أساسًا. يريد الناس أن يؤمنوا أن الله يرعاهم ويحميهم كي يحسوا بالأمان والإشباع. يحتاجون أن يكبروا ويتركوا ضعفهم خلفهم. لا يفهمون بعد أن حياتنا نكتة في رأسه. حرفيًّا. نكتة أراد بها أن يتسلَّى ويضحك قليلًا. وفي ظل نكتة عبثيَّة مثل حياتنا، لماذا نحاول أن نحيا وفق معنى. لماذا لا نعيش وحسب. أيًّا كان كيف ولماذا. استمتع بحياتك واختفِ من الوجود. هذا هو شعاري الآخر. سألني كيف سأقدر أن أستمتع في سن الستين أو السبعين مثلًا.

قلت له إني لن أعيش لهذا العمر. تفاجَأ وسألني: لماذا. فأجبتُه: ولماذا أعيش حتى هذه السِّنّ؟

(الليلة الحادية والعشرون)

[هو]

أرق ليلة أخرى. في سِفْر أيُّوب، يأتي إليه ثلاثة أشخاص بعدما أصابته النكبات والمحن. يقولون له إنَّه بالتأكيد أخطأ حتى يصيبه كل هذا. إن الله يؤدبه ويعلمه. يرفض أيوب كلامهم بإصرار. يظهر الرب ليفصل بينهم بنفسه. يجانبه هو الصواب. يأمره الرب: "الآن شدَّ حِقْويْك كرجل. أسألُك فتُعْلِمُني." الجملة بها رنَّة وجوديَّة عميقة، قلتُ لها من بضعة أيام ونحن جالسان نشرب في 'رُوف' الحرية. هي عن مساءلة الحياة للواحد بعدما تدغدغه وتكسِّر عظمه. تنهره: كُفَّ عن البكاء وقُمِ اصلُب طولك. انفض التراب وامسح الدم من وجهك وجفِّف دموعك، وقُلْ لي ماذا ستعمل؟ السِّفر، على خلاف مُحَاورِي أيوب الذين يقولون إن الله 'أخلاقي'، يشير أنه غير مُلتزم بالمعايير الأخلاقيَّة الإنسانيّة لتحكم تصرفاته. هو ببساطة، وأكثر منطقيَّة، أعلى منها. هذه هي السيادة الحقيقيَّة. لذلك لا خلاصَ من الليل. الليل يتم احتمالُه.

[هي]

أرق ليلة أخرى. مثل فتاة تكتشف نفسها، أو ملك جديد صغير لا يعرف ما يَملِكُه، كنت أتقدم في الليل حتى أصبح مملكتي. وأنا صغيرة سألت ماما: من يحرس الملائكة الحارسة؟ المشكلة الآن ليس أن لا أحدَ ليحرسك في مملكة الليل. بل لأن لا أحد هناك ليغفر لك. ينتابُني نفس الشعور. كأني سأكتشف شيئًا. أو أتذكره. ثم هذا الحزن اللاذع يغمرني وتسوَدُّ الدنيا. تصبح الحياة كأنها داخل ذاكرتي أو خيالي، وأنا في مكانٍ آخر وسأُفيق. لكني أعلم جيدًا أنه لا خلاص من الليل. الليل يتم احتماله.

(الليلة الرابعة والعشرون)

[هو]

دروس الليل تَلوك على مَهَل. وكل رجل سيفه على فخذه. أما حياتي فشكل غير مُحدَّد من الحب. ويحدث لي أحيانًا أن أرتفع وسط الجدب، بصورةٍ تكاد تكون كاملة، أي يكون هذا الحب هَدية في ذاته. أعني أحيانًا، في الهَمّ، في المحنة المتمادية للأيام، يفاجئني شيءٌ ما مثل الضوء. أرتفع وأحلِّق قافلًا من الهند فوق

ملايين المنازل والمعابد وغيرها من المباني، حتى إن صيادًا شيعيًّا من مدينة مَشهَد المقدسة كاد أن يصطادني. لكنه بدلًا عن ذلك أصاب فيلي الجميل، ولم أجد ما يقلُّنِي إلى أرض مولدي. توقف الخط الأحمر المرسوم فوق الخريطة ولم يكتمل. سرتُ أميالًا فوق أميال. وعلَقت سوسنة الوادي بحذائي المُبلَى. تمهلتُ جانب نافورة. خلعتُ كل ملابسي. نزلت أسبح فيها ورأتني الأسماك أثناء تجوُّلي. أحاطت بي ترقبني في فضول الدهشة وأنا يدور بخَلَدي، وراء أخبار أحداث طالعتنا كأنها وقائع نهاية العالم، الشعوبُ والقبائلُ في الكتب المقدسة التي كانت على الجانب الخطأ من التدوين. الذين كانوا، لسوء حظهم، في المكان الصحيح والوقت الخطأ، فنُكبوا بالذبح والأوبئة والضربات الموجعة. شعوبٌ أدار الله وجهه عنها ولم يحزن عليها أحد. فقط ذُكرت مآسيها في سطور عابرة كديكور قصة أساسيَّة. يدور بخلدي رعبهم وفزعهم من الضرر ومن الفَناء، ومن استشراف مشاهِد قياميَّة تتجسَّد واقعًا. يدور بخلدي كتابٌ سيُكتَب في المستقبل عن الشعوب التي أصبحت أيضًا في المكان الخطأ. عن منطقة منكوبة بالحروب والصراعات والجهل والفقر. منطقة طفحت أبناءَها لاجئين على العالم مثل جراثيم وفيروسات يتم تحاشيها بكمامة وقفَّازات طبية. عن الله، الذي خرج منها، وتركها خلفه تعاني. عن مؤمنيه الذين اختاروا الموت لأنهم لا يعرفون طريقة غيره للعيش. عن أن كون الواحد على الجانب الخطأ من التاريخ

هو أمر موجعٌ بلا خلاص. آمال وأحلام ثم فجأةً كل شيء يذهب أدراج الرياح كما لو بواسطة أعمال شيطانيَّة. لا أحد يخرج سالمًا من مجموع مثل هذه القرون. حتى دراكولا مات بصليب خشبي دُقَّ في قلبه. أو في صدره. تلك الأمور لا تهمُّ مساحة خطئِها. لما نما الأمر عبر الأزمان اختار كنيسة ليموت فيها من أجل التعب. وحين دخلوا ورأوا دقَّ الوَتِد الخشبيّ ظنُّوا أنها جريمة نيكروفيليَّة. ربما بسبب الصرخة الشعواء التي انطلقت وقد تشابهت مع صرخةِ متعةٍ رافقَت خروج دفقات الدم الأحمر. يدور بخلدي، والسمك يتقدَّم مني بحذر، أنه في صميم التاريخ ذلك الوجع: الأجيال التي تُركت بلا عائل. بلا أحد يستمع لها. الأجيال التي تشعر بالوحشة بعد أن ذويت في الظلام، لتذوب مثل لحظةٍ في تاريخ الزمن. حافظت الحضارة على المعطوبين عن طريق الكيمياء والطب، رغم أوقات سابقة كان فيها التطور بآليَّاته العملاقة التي لا تتوقف ولا ترحم تُجهِز عليهم أولًا فأول قبل نشر حَمْضِهم النووي للأجيال الجديدة. فخرجت أعدادٌ ضخمة للعالم حاملةً تلك الأحماض النووية وزادت الحيوات المُلتاعة والمُعذبة. لا هي راحت في الوباء ولا هي مُشارِكة في الحياة ومندمجة فيها. وضعٌ غير مسبوق في التاريخ. وجود كل هذا العطب في المُجتمعات البشريَّة. أتاحت الإنسانية لنفسها كل وسيلة لعيشٍ رغيد، إلا الحياة الجيدة. استشرت العُصابيَّة

والذُّهانيَّة حتى المُفعَّلة بالمخدِّرات والتكنولوجيا. ظرف تاريخي غريب *وماذا لو أعطاك هذا الكابوس ركلة خلفية؟* يدور بخلدي، والسمك يقضم أطراف جسدي، أننا حين وعينا على الدنيا ثُرْنا ورقصنا في الشوارع، جربنا كل أنواع الكليشيه، استمنينا كل أنواع الاستنماءات، تركنا التعليم الذي دخلناه خطأً لسنوات، عشنا بأوهامنا وتحدينا الكل وعملنا ما نريده رغم الخسائر الفادحة، تصادمنا مع مسوخ رفعوا في وجوهنا اسم المقدس وانتصرنا عليهم، رحَّبنا بكل أشكال البذاءة وجرينا من التعاسة بالمشوار، أحببنا وبكينا من الهجر وغباء العالم، كتبنا رواياتٍ عن علاقاتنا وطموحاتنا الفاشلة، تذاكينا وتعالينا وتصرفنا كأننا أشخاص بالغون، لم يَرُق لنا الخراء في كل مكان، تعاركنا مع مرضى وأنصاف مرضى وكل مخادع نظَّر علينا بكلمتين قرأنا مثله ضعفين، وفي وسط هذا كله سهرنا نفكر كيف نخرج من الاكتئاب بأشكاله الخطرة ونسيطر على القلق والرعب، جربنا عبر السنوات عشرة أنواع من مضادات الاكتئاب والقلق على الأقل، خسرنا ناسًا ومات لنا ناسٌ ورأينا حروبًا أهليَّة وتقطيع رؤوس وخرابًا شاملًا ولاجئين على الهواء بينما نحضِّر أنفسنا كي نحصِّلهم، اخترعنا الانبساط اختراعًا ونحن نحفظ الحزن صمًّا، وقفنا على الجانب المظلم للنظام العالمي ورأينا رؤى العين كيف الشعوب على الجانب الخطأ من التدوين ليس لهم أي ثمن. الماء لونه أحمر قاني. الضوء يلقي عليه أَلَقًا ساحرًا.

[هي]

متى توقفت عن الكلام مع أمي؟ بعد وفاتها بعدة أشهر؟ بعام؟ لماذا لا أشعر بالذنب؟ أشعر بالوحدة أكثر بدونها. تظهر لي كثيرًا في الأحلام فتتكوَّن ذكرى جديدة معها. الذاكرة لا تفرِّق بين الواقع والأحلام. هي تنتقي فحسب اللحظات التي تناسبها. لكن هناك أيضًا تلك اللحظات التي تسجل نفسها في الذاكرة بشكل استثنائي. كأنها خارج التسجيل. أو تسجيل خارق واعٍ على تسجيله. لحظات تنظر إلى نفسها. لحظات تقول: سوف يتم تذكُّري في المستقبل بشكل واضح. لحظات مُستقبليَّة في قلب الماضي الذي هو حاضر. أتذكَّر نفسي في المستقبل. أتذكر تلك اللحظة من الانتباه والوعي. أتذكر نفسي في تلك اللحظة وأنا أتذكر. أحيانًا حين تجيء أهمس لنفسي "أنا لن أنسى أبدًا تلك اللحظة!". أتذكرها بالفعل بعد ذلك بوضوحٍ يشوبه أحيانًا تعديلُ مرور الزمن. عندما تطفو على السطح دون سبب في أوقات عشوائية. حين أفكر في تلك اللحظات، أجد أن لها طابَع الصدمة، رغم أن أغلبها عادي مفرط في عاديته. مروري من جانب زهرة مثلًا أو رؤية ظل مائل على حائط. أحيانًا ما تكون غريبة. مثل تلك اللحظة التي أغلق أبي فيها عينيه في امتنان، ورفع وجهه لأعلى، وابتسم ابتسامة عجيبة، حين قال له الطبيب في مستشفى الأورام إن السرطان المنتشر في جسده

له علاج. كانت أول مرة أرى فيها أبي من هذه الزاوية. كأني اكتشفتُ جانبًا في شخصيته لم أعرفه من قبل على مدار 31 عامًا. لا أريد أن أعرف شيئًا خارج عملي وليلي. فلو قُدِّر لإنسان أن ينظر نظرة شاملة على العالم كله لمدة لحظة واحدة، سيفقد عقله تمامًا. في مثل هذا العالم كان يمكن أن نكون وحوشًا. لكن هذا ليس عزاءً لنا. الليلة، بعدما انتهينا. وقف 'هدفي' عاريًا كمنشفة. كان جسده مجيدًا حقًّا. مبهرًا كالمسيح في الأيقونات. خسارة بالفعل أنه 'هدفي'. يظن البعض أن الوصول للرجل يكون عبر الجنس. هذا ليس صحيحًا. العبرة المستفادة من 'ألف ليلة' هو أن الحكي أقوى من الجنس. لذلك أقدِّم للرجال قصة تجذبهم، تدوِّخهم، وتجعلهم يذوبون بين يدَيَّ. لا أنام مع أحد إلا إذا أردتُ ذلك لمتعتي. لا أخلط المتعة والعمل عادة. لكن هناك استثناءات، مثل الليلة. منطق خلط المتعة والعمل منطق فاشل ومُؤذٍ. يستغلون به السُّذَّج في حياة الشركات. قلتُ له: "لك فرصة واحدة. سأسألك سؤالًا. إذا جاوبت بشكل صحيح ستذهب. هل تؤمن أن هناك خلاصًا؟" جاوب: "نعم، نعم، أؤمن". إجابة خطأ. قال: "لا، لا يوجد هناك خلاص، لا يوجد خلاص لأحد". إجابة خطأ. ترجَّاني: "أرجوك! ما الإجابةُ الصحيحة؟!" بكى ونَشَج. كأنه كان يريد أن يعرف الإجابة الصحيحة فعلًا. حسنًا، لا يوجد إجابة صحيحة. كل الإجابات خطأ. كل الإجابات بلا معنى وعبثية وجوفاء. كل الأسئلة قد

طُرحت وكل الإجابات رُفِضَت. لماذا سألته إذن؟ أنا أسأل ليشعر هدفي بالندم. يقولون إني لا أبتسم أبدًا. يبالغون. أنا أبتسم أحيانًا. مثل حينما رأيتُ حيرة حقيقيَّة على وجهه، وهو عاري وقضيبه نصف مُنتصب. إن مَن ينجحون في التقاعد يستطيعون الابتسام طوال الوقت براحتهم. لكن حينما يلتقط المرء سعادته بالقطَّارة يصبح بالتدريج خشن الطبع. إحساس السيادة لا يجعلك تبتسم، لكنه يتركك مُشبعًا.

(الليلة الثانية والثلاثون)

[هو]

كُنَّا في شارع رمسيس قبل قرنٍ من الزمان، على ظهر حافلة كبيرة مكشوفة، كأنها عربة عملاقة تجرُّها خيول، وبجانبي ماما وأختاي، لم أكن خائفًا بل مبسوطًا وخفيفًا كما في نُزهة. خُضرة الزرع والمياه كانت تنحسر في سبيل الأسفلت والرصف والمباني التي ستكون، وحدَّستُ أنَّ هذا هو ما يجعلني أخاف، كانت ماما تُشيد بسرعة الإنجاز ثلاثة أيام في الأسبوع بينما نحن في الكويت، البلد يتقدم سريعًا، رغم أنها كانت تَمقت الرجوع في الحقيقة، قاطعتُها قائلًا لولا المِعمَار ما كانت ضاعت حياتي فنظرَتْ إليَّ مُستنكرة: حياتك ضاعت! – ربما ضاعت حياتي،

لكن هذه اللحظة فلتت لتُخزَّن من ضمن هذا السجل الصغير والعجيب. لحظة رؤيتها بفستان لبني سماوي، فوقه جاكت جلد بُنّي قصير، وتضع سماعات كبيرة على أذنها، وهي منحنية على البايك دون خوذة، وشعرها البُني، هذه المرَّة، يطير إلى الوراء مثل إلهة إغريقية! جاءت التفاصيل حين وقفت أمامي. الصندلان الطويلان المتشابكان حول سمَّانتيها القويتين. طولها حين فردت ظهرها. صدرها المفعم والعفّي. الحلق المشبوك في إطار أُذُنها اليمنى. لحظة فائقة كأنها حُلم! ركبتُ وراءها وطرنا على طريق الأوتوستراد. أخذتني في فُسحة بالطرق شبه الخالية. الطيران فوق الكباري كان رائعًا. كنتُ منتشيًا حتى إنني لم أنزعج من ملابسي. لا شيء يمكن أن يزعجني وقتها. أضمُّها وأكاد لا أصدق. 'جليتش' في الزمن حصل وجعلها في حضني ونحن نطير على الأسفلت. ذهبنا إلى مكانها المفضل. كانت هي أيضًا في مزاج استثنائي. بقيت تلمس يدي وكتفي كثيرًا وتضمُّني وهي تتحدث. لكن اللحظة الأجمل حين، أحيانًا، ترفع الشفة العليا دون سبب. ربما ابتسامة. أو الشكل الذي يعطيه الاعتراف الكامل. حكيتُ لها عن الحلم الغريب. ثم سألتُها عن أمها. قالت إنَّها ماتت وهي صغيرة، ولا تتذكر سوى أنها كانت استثنائية الجمال ومرحة للغاية. سألتها عن سبب موتها، فحركت يديها في الهواء وقالت: "ظروف الحياة". استغبيت نفسي أثناء رجوعنا في الفجر. لماذا أفتح هذا الموضوع الحزين في مَوعِد ليليّ جميل

ورائق كهذا. ربما كنتُ أبحث عن نقطة خاصة نتشارك فيها معًا. لكن حدث شيء مذهل أنساني تلك السقطة. قالت لي إنها تريد أن تُريني شيئًا. ثم أرخت حمَّالة الفستان وأرتني الوشم على جانب ظهرها. كان هو بالضبط وبنفس الحجم. الوشم على ذراعي اليُسرى! شجَّعَني هذا حين وصلنا أن أصعد وأجلب لها هديتي.

[هي]

الليلة كانت تتويجًا لمجهود فترة طويلة. كانت مهمة صعبة. نجاحي في إتمامها أشعرني بالرضا. قررَّتُ أنها ليلة مميزة. رجعتُ إلى البيت وغيَّرتُ ملابسي إلى فستان رقيق أحبه. كلمته حتى يجهَز فسألني ممازحًا لماذا دائمًا أنا واثقة أنه حُرّ وجاهز للنزول. قلتُ له: لا يوجد أحد يرفض رؤيتي. كما أني أمسيت أحفظ تقريبًا مواعيده. ضحك وقال إن مزاجي رائقٌ اليوم. حين مررتُ عليه قررتُ أن ألفَّ في الشوارع. لم أُرِد سوى أن أطير. شعرتُ به خائفًا ورائي. لكن بعد قليلٍ كان يضحك ويصيح بصوتٍ عالٍ. أصبح مُنتشيًا مثلي. لما جلسنا أكلت كثيرًا. كنتُ شديدة الجوع. شربتُ نبيذي المفضل حتى أنهيت الزجاجة. طلبتُ زجاجة أخرى احتفالًا بالمناسبة الخاصة. أصبح دائخًا قليلًا من الشراب. حكى لي عن حُلْمه بأمِّه ثم حدثني عن الموت. قال إنه

يرى بدون سبب واضح حيوانات كثيرة ميتة في الشارع. غالبًا الكلاب. قلت له إن الأمر نفسه يحدث معي. بداية من الليلة التي تقابلنا فيه وأنا أتريض. رأيتُ ليلتها كلبًا ميتًا يحتضن إطار سيارة. فقال لي في أسف إنه رآه أيضًا. وقال إنه يتأثر كل مرة من المنظر. وأكثر ما يزعجه هو ردود أفعال الناس. أو عدم ردود فعلهم. كأنهم لا يتأثرون بشيء خارج جلودهم. أسررْتُ إليه أني لا أحب الكلاب. ربما القطط. في العموم لا أحب الحيوانات لأن عمرها قصير. لا أعرف لمَ يفعل بعض الناس ذلك بأنفسهم. لكني أتفق معه في تعاملهم معهم. فالناس أغلبهم ضعفاء. وما هو حقير في الضعفاء أنهم الأكثر قسوةً حين يقدِرون. وافقني وقال إنه رأى ذلك يحدث دومًا. يفعلون ذلك كانتقام من معاناة سابقة. أو دوخة من القوة الجديدة التي لم يعتادوا عليها. لا يفهمون ماذا يعني أن تكون في يدك سُلطة. أضفتُ والأعباء التي ينبغي تحمُّلها في هذا الموقع. إنهم لا يرون في المقدرة سوى الأذى. شرب كأسًا آخر وأنشد بيتًا لعمر الخيام قرأه مؤخرًا. "أليس من الأفضل لك أن تستعبد كائنًا واحدًا بالتي هي أحسن من أن تحرِّر ألف عبد؟". أو شيء من هذا القبيل. لا أعرف لمَ يضيِّع أحدهم ساعاتٍ من حياته في قراءةِ كلامِ أناسٍ آخرين ميتين، بدلًا من أن يعيش حياته. القراءة فعلٌ مُملّ ومضيَعة للوقت. حين ذهبت للحمَّام جاء شخص ما ورائي ومسك ذراعي. كان مخمورًا وطلب نمرتي. نحَّيتُ

ذراعه ودخلت. بعد خروجي كان لا يزال واقفًا. اقترب مني وأراح ذراعه على كتفي. لويت له ذراعه حتى سمعت صوت عظامه تُطقطق في أذني. من حُسْن حظِّه أني سعيدة ومُنتشية الليلة.

(الليلة الثامنة والثلاثون)

[هو]

كنت قلقًا من ردَّة فعلها حين أعطيتُها لها. كانت متفاجئة ومترددة. لكنها قبلتها في النهاية. قلتُ إني جلبتها من صديقة لي ولدَتْ قطتُها مؤخَّرًا. قُطَيْطة عسلية عمرها أربعة أشهر بلون عينين مختلفتين مدهشتين. فيروزي وسماوي. ويتغيران في الضوء لألوان أكثر إذهالًا. وقلتُ إني شعرتُ أنها تنتمي إليها حين رأيت صورتها. أخذَتِ القُطيطة ووضعتها داخل الجاكت الجلدي الذي لبسته حين زادت برودة الجو. شعرتُ بإثارة مفاجئة كونها تستدفئ الآن بين ثدييها الجميلين. ذكرتُ لها الاعتقاد الشائع عن القطط ذات العيون مختلفة اللون. كونهم صُمًّا. كأن الطبيعة أعطتهم بإفراط من ناحية، فتأخذ من الناحية الأخرى. شيء مقابل شيء. لكن أردفتُ أني بحثتُ واكتشفت أنه اعتقاد غير حقيقيَّ. هزَّت رأسها وابتسمَتْ. كان من المرات

النادرة التي تبتسم فيها. لم أكن أريد الصعود. لكنني لم أتحمل كل ذلك، فقلت لها إن الشمس على وشك الطلوع ومصَّاصة الدماء ستُحرق الآن. قالت إنه ينبغي لها أن تذهب بالفعل. وسمعت صوت الموتور يهدر في صمت الشارع بصوتٍ حادٍّ مزِّق قلبي. في الأيام التالية اكتشفنا فعلًا أن القطة صمَّاء، وأنها ذَكَر. قالت إنها لم تعرف أن تتعامل معه في البداية ولا هو معها، لكن بعد ذلك أصبح يلازمها طول الوقت. كأنه طرف جديد لجسدها. ترسل لي صورها معه. وللمرَّة الأولى أشعرُ أنها سعيدة. وللمرَّة الأولى أدرك أني أتعذَّب.

[هي]

من كل الأشياء أهداني قطة! لا أعرف كيف فكَّر أني شخص يصلح أن يعتني بقطة. أو بأي كائن حي. لكن حماسه الزائد جعلني أَقبلُ بها. في البداية انزوت القطة في ركن ورفضت أن تخرج مطلقًا لتأكل أو تشرب. في الليلة التالية خرجت وشربت بعض اللبن. كانت خائفة بشدة وترتجف. مع الأيام تعودت عليَّ وأصبحت تلازمني في كل مكان في الشقة. حتى دخولي الحمَّام كانت تقف أمامي تنظر إليَّ حتى أنتهي. لم أنتبه إلا وهي جزء أساسي من يومي. أسميتُها مانجو. أسعدني أنها كائنٌ ليليٌّ مثلي. لا تحب النهار ولا نور الشمس. ستحتاج مثلي قريبًا إلى جرعات

فيتامين دال. اكتشفت سريعًا أنها لا تسمع. كنت أظنها عنيدة فحين أناديها لم تكن تلتفت. بعد ذلك عرفت مصادفةً أنها ولد. من حُسن الحظ أن الاسم لا يزال ينفع. كنت أرسل له صورًا حتى يطمئنَّ أنه بخير. يخبرني إنه كان متأكدًا أننا سنندمج معًا. فقلت له إن مانجو ولد شقي يحب أن يتلصَّص عليَّ في الحمام. لكنه بخلاف ذلك مؤدب ولا يثير المشاكل. شكرته على الهدية التي كنت لا أعرف أني أحتاجها. بدا لي سعيدًا. أظن أننا في حياةٍ أخرى كنَّا لنصبح زوجًا جيِّدًا. مَن يدري.

(الليلة الثالثة والستون)

[هو]

هرب قطُّك الأصمُّ إلى الشارع. حلُمتِ أنك تدافعين عنه ضد ذئب مفترس. قتلتِه آخر الأمر بيديك العاريتين. في الفجر أرسلتِ لي نموذج الإعلان ذي الكلمة المقبضة: مفقود. أنا أيضًا حلُمت بكِ. كنتُ في بهو أحد الفنادق الفاخرة. قلقًا ومتوترًا لسبب لا أعرفه. أطلب من موظف الاستقبال مكالمتكِ في غرفتكِ. يجاوبني بأنه من الأفضل أن أصعد بنفسي لأن الهاتف مُعطَّل. طلع المصعد إلى دورٍ عالٍ لا أتذكره. فُتح الباب أخيرًا.

أرى بارًا كما تتصوره الأفلام التي تتخيَّل المستقبل في الستينيات. المكان غارق في اللون الأزرق. تقف امرأة جميلة على البار تمسك كأسًا وتهزُّ رجلها في عصبية. عرفتُ بشكل ما أنها أنتِ رغم اختلافكما. وعرفتُ أنها/ أنكِ تنتظرني أنا. بالفعل. لم توجهي لي تحية. انطلقتِ في عتابٍ مُندَفعٍ لعدم اتصالي بك الفترة الماضية. ذراعاكِ معقودتان. وجهك جميل وحزين. مخمورة قليلًا. درجات جسدك بين النور والعَتمة. اكتشاف إضافي رومانسي النزعة. هممتُ لأتحدث لأكتشف أني نسيت الكلمات. نسيت مفتاح العودة إلى ذاتي. لم أعرف من أنا. كنتُ وسط جَمْع وحدَّستُ أنه يوم عيد. شعرتُ بأنه ينبغي عليَّ أن أقوم بخُدْعة طريفة وجريئة أمامك. لتسليتك ورفع معنوياتك. اتجهت للشباك في يدي كأس وملتُ بجذعي. بمنتهى الهدوء رميتُ نفسي ورأسي لأسفل. صرختِ واضِعةً يدكِ على فمك. أثناء رحلة الهبوط والشباك يبتعد فكرتُ أين بالضبط الجزء الذي يُفتَرض به الخدعة. كان لا بُدَّ مثلًا أن أربط قدمي بأنشوطة من السطح. هكذا عند مسافة مُعينة يقف السقوط وأتأرجح في نهاية الحبل. أُغلقَت عيني من ضغط الهبوط. عرفتُ أني سأموت بعد لحظات. في الظلام الدامس تقبَّلتُ الأمر بسلام. انتظرتُ لحظةَ الارتطام. تباعدت اللحظة المُرتقَبة. استغربتُ وزاد استغرابي. صحوتُ من النوم.

[هي]

اختفى مانجو. بحثتُ عنه في كل مكان. بعدما يئست وضعتُ إعلانًا بمكافأة لمن يجده. في الأغلب هرب وأنا أحاسب على طلبٍ ما. تسلَّل من باب الشقة المُوارَب. نصحني أن أضع الإعلان على الإنترنت. ليس لديَّ حسابات افتراضيَّة. الليلة الماضية حلُمتُ بذئبٍ برِّيٍّ على وشك افتراسه. دخلت في صراع دموي معه حتى قتلته. في الواقع أقدِّر الذئاب عن القطط. لا أعرف ماذا يحدث لي مؤخرًا. هل أصبحتُ لينة فجأة؟ متى حدث هذا؟ قُبيل استيقاظي منذ قليل أيضًا، حلمت أني في بهو أحد الفنادق ذات النجوم السبع، وأطلب من موظف الاستقبال مكالمة مع أحدهم. نزيل في الفندق. كنت أعرف أنه هدفي الجديد. لكن لا أتذكَّر من هو. جاوبَني الموظف بأن المكالمة ستستغرق من 10–15 دقيقة كي تصل إلى الطابق الذي يقطن فيه النزيل. لأنها ستمرُّ أولًا على الطوابق الثلاثة الأولى، هذا إذا كانت النوافذ مغلقة، حيث أن الرطوبة قد تكون أحد العوامل المؤثرة التي تؤدي إلى تأخر وصول المكالمة الهاتفية. قررتُ الصعود بنفسي كإجراء أسرع. طلع المصعد إلى الدور الثالث. فُتح الباب. بدأت الأشياء في الحدوث. وقت الحاجة تُمسِك مسدسك مثل طفلٍ ثَرْثَار. لكن هذه المرَّة كان الوضع مختلفًا. المسدس سَاح وتحول الأمر إلى سِيرْك. كُلُّ شيءٍ يتحول إلى شيءٍ آخر. الجماد

إلى سائل. والسائل إلى بخار. والبخار إلى جماد. كل شيء يصبح كل شيء دون توقف. استيقظتُ أنهَجُ غارقةً في عرقي. الساعة التاسعة. وجدتُ إشعار مكالمة ورسالة منه. يريد رؤيتي الليلة. استغربتُ المُصادفة، فأنا كنت سأتصل به. قال إنه سيمرُّ بسيارته. وافقتُ بعد قليل من التفكير. اقترح أن نذهب إلى مطعم ما في أرض الجولف. إنَّه قريبٌ من المكان الذي تقابلنا فيه أولَ مرة. مُصادفة مضاعفة.

(الليلة الثالثة والستون – الساعة 10:18م)

[هو]

أقود سيارتي في طريقي إليها. ما زلتُ أفكر في الحُلم الغريب. كيف نسيت الكلام. بل ونسيت من أكون! لماذا في النهاية قمتُ بالانتحار؟ هل كان انتحارًا فعلًا؟ يبدو لي الحُلم كأُحجيَّة. أو أسوأ. احتياج محض. أستجمع تركيزي. الجزء المُضني هو تكرار المشاعر نفسها. لا شيء جديد. أُدمِن مؤخَّرًا لعب الأوراق على اللابتوب. أصنع مأزقًا صعبًا أحاول حلَّه. كأنِّي بحلِّه سأحلُّ مأزقي الخاص. كل مرَّة أخبر نفسي إن كثرة المحاولات ستجعلني أفوز في النهاية. أحيانًا أيأس وأتشاءم. اليوم التالي أحاول بضراوة. يتملَّكُني شعورٌ بأني عالق داخل أُحجية. أني

قريب من الحل. قريب لدرجة تُشعرني بالإثارة والأمل! لحظات أخرى أشعر أن تلك الأحجية لا نهائيَّة. بلا حل. مسدودة. أني أخدع نفسي. وأن المأزق المفروض ليس بسبب نقص معرفة. لا يوجد شيء جديد. بل نقص أساسي في الوجود. الحياة بصفتها سلسلة من الأحاجي لا بُدَّ من حلِّها في وقتٍ محدد. لأنه كلما استمرت الأحجية وقتًا أطول صارت أعقَد وأكثرَ ظلمة. فإذا كان النور الذي فيك ظلامًا، فيا له من ظلام! أعرف أن ذلك ليس شيئًا سيئًا تمامًا. بدون أحَاجِيّ ستكون الحياة بلا معنى وغير قابلة للعيش. يصل المعنى بعد صِناعة الأحجية من قِبل الرغبة. في فيلم "انفجار" لأنطونيوني، يخلق البطل أحجية على شكل لغز جريمة قتل. في صورة عشوائيَّة ألتقطها كعمل فنِّي لعاشقين في حديقة. وهو ما يجد صداه فيما قاله جاره الرسَّام في بداية الفيلم. إن لوحاته لا تعني شيئًا حين يعملها. فوضى فقط. بعدها يجد شيئًا يتمسك به. تفصيلة صغيرة. رِجْل مثلًا. يتشكل بها المعنى وينبني. مثل إيجاد دليل في قصة بوليسيَّة. هذا هو ما يجذبني ويُخيفني منكِ، لكنه يصنع معنى لحياتي. أبحث في الحُلْم عن دليل يرشدني. شيء أتمسك به. تفصيلة صغيرة تُخرِجني من تلك الأُحْجيَة. لكني أستطيع أيضًا تخيُّل بوضوح أن يكون الأمر بهذه السهولة. أن آخذك في سيارتي وننطلق. أن نغني سويًا كما تعودنا ونذهب إلى أماكن لم نَرَها كلانا من قبل.

لكن للأسف، كما تعرفين، الحياة ليست بهذه السهولة. أما أنا فعرفتُ من أكون. أنا كلبُك الضالّ.

[هي]

مرَّ عليَّ في عمَّار بن ياسر. قال إني جميلة اليوم فمازحتُه أني جميلة دومًا. ارتبك وقال إنه يقصد أني جميلة اليوم بشكلٍ خاص. استوقفني ذلك. سألته لماذا. فارتبك أكثر وأبدَى عدم معرفته لكنه يشعر بذلك. كان غريبًا أن يشعر بذلك اليوم. الحياة ساخرة بشكلٍ شيطاني أحيانًا. وصلنا إلى المطعم الإيطالي وبعدما طلبنا قال إنه يريد أن يبلغني بشيء. لكنه يريدني أن أعدَهُ أولًا إذا لم يعجبني ما سيقوله فلأنسَهُ كأني لم أسمعه. وعدتُه بذلك. قال إنه يحبني. كان ذلك أكثر من اللازم. بالفعل أكثر من اللازم. جاوبتُ بأرقِّ طريقة ممكنة بأني لا أشعر تجاهه بشيء. وأني أعتزُّ بصداقته كثيرًا. لكن ليس أكثر من ذلك. هزَّ رأسه وقال إنه يتفهَّم ولا يريد لما قاله أن يغير شيئًا في صداقتنا. أخبرته ألَّا يقلق من ذلك فهو سيظل دائمًا له مكان خاص في قلبي مهما حدث. وأريده أن يفعل المثل معي. أكَّد على قولي واستأذن ليُجري مكالمة. خرج من المطعم ورأيته يتحدث من وراء الزجاج. كان يبتسم وهو يتحدث. ويتحرك بسرعة وعصبيَّة ذَهابًا وعودة. ربما لا يوجد أحد على الناحية الأخرى. لكنه يفرِّغ مشاعره بالحركة. انتهى

الأمر. يعرف ذلك. أو يشعر به. لا يفرق في شيء. الأمر كله صُدفة. والصدفة في ذاتها خطرة لأنك لا تعرف وجهتها. ربما تضيف إلى مخططك. أو تسبب تخريبًا عشوائيًّا لما تحاول تنفيذه. ماذا فعل يا تُرى حتى يدخل في نطاق عملي؟ عاد أقلَّ مرحًا. طلب مني أن نرحل بعدما نأكل لأن لديه موعدًا مُهمًّا. قلت إذا أراد التحرك الآن فلنتحرك. وافق على المقترح. وهو يهمُّ بالقيام أمسكت بقبضته على الطاولة. قلت له إن الحياة أكثر تعقيدًا مما نتصور. هز رأسه وقال إنه يعرف هذا. صمَّم على دفع ثمن الطعام الذي لم نأكله وخرجنا. قلتُ إني سأستقلُّ المترو القريب من هنا. فقط يشير لي إلى اتجاهه. تردَّد ثم شاور مثلما فعل أول مرة تقابلنا. قلت له إن ملابسه تعجبني الليلة. تلقائيًّا خفض بصره ونظر إليها. أخرجت مسدسي وأطلقته. كان هناك بعض الناس المارِّين في الشارع المقطوع. اضطررت أن أجري. خرجت إلى شارع طويل هادئ واصطدمت أثناء جريي بكَتِف أحدهم. امرأة شقراء. كنت أنهج بشدَّة وصدري يعلو ويهبط وأتلفَّت حولي. لا يوجد أحد. لقد فَلَتُّ. سألتها أين أقرب محطة مترو لأني تُهت. أشارت لي على الاتجاه، وانصرفَتْ في نفس الوجهة. سِرتُ ماشيةً خلفها. القمر كبير الليلة ومستدير، ويعكس ضوءًا بنفسجيًّا رائقًا. مرَّة أخرى يخرب مزاجي بالأشياء الجميلة. مثل هذه النسمة الصيفيَّة الليليَّة، والمرأة الشقراء أمامي. لا أعرف لماذا يعطي أي أحد قلبَه لأي أحد آخر. هذا أغبى شيء يمكن

أن يفعله شخص لنفسه. الحُب ضعف، وينبغي ألَّا تظهر ضعيفًا أمام أحد. أيضًا الجري المفاجئ منهك جدًّا أحيانًا. لماذا لم أعمل بمهنةٍ نهاريَّةٍ عاديَّة؟

المؤلف في سطور

مينا ناجي

- كاتب ومترجم مصري، وُلِد عام 1987.
- حَصَل على شهادة هندسة الاتصالات من الجامعة الألمانيّة بالقاهرة. منذ 2012، يعمل بشكل حُر بمجال الصحافة الثقافيّة والترجمة، بجانب عمله بمجال الإنتاج السينمائي مدّة 4 سنوات (2016 – 2020).
- حتى الآن، نشر مينا 6 كتب أدبيّة تتنوَّع بين الرواية والشِعر والسرد والقصّة أحدثها كتابه السردي "33: عن الفَقد والرُهاب" (2021)، الذي حاز على منحتين أدبيّتين من مؤسسة "آفاق" و"مفردات"؛ وروايته الثانية "مَدينةُ الشَمْس" (2020) التي دخلت القائمة الطويلة لجائزة ساويرس الثقافيّة لعام 2021.
- بجانب تلك الأعمال، قام بترجمة كتاب "ضد الابتزاز المزدوج" للفيلسوف سلافوي جيجك (2022)، وهو مقالات فكريّة – سياسيّة عن أزمة اللاجئين والإرهاب، وقد حاز على جائزة الدولة التشجيعيّة في الترجمة لعام 2022.
- نشر أيضًا قصّصًا ونصوصًا ومقالات متنوعة في العديد من الصحف والمواقع مثل: "الجمهورية"، "القبس الكويتيّة"، "الأخبار

اللبنانيّة"، "شباب السفير"، "معهد جُوته"، "معازف"، "أخبار الأدب"، "المنصّة"، "مدينة"، "Revue & Corrigée"، "Arablit" وغيرها.

- قدَّم مينا البودكاست الأدبي "مع مينا وإسلام" على موقع ختم السلطان خلال عامي 2019/ 2020، الذي وُصف بأنه أهم بودكاست للأدب العربي. كما أعدّ وقدّم البرنامج الحواري "سوشي بوك ريفيوز" عام 2017 على موقع اليوتيوب، للمراجعة المصوَّرة للكتب واللقاءات، وموسمه الثاني في عام 2021 الذي استضاف فيه الفيلسوف العالمي سلافوي جيجك. وكتب سيناريو حلقتين عن موضوع الحرب الباردة للبرنامج الشهير "الدحيح".
- في عام 2021، أسَّس مُبادرة "أدب 360"، مع مجموعة من الكتّاب المصريين، وهي مبُادرة ثقافيّة تعني بالأدب الجاد ورفع مستويات ممارسته وتلقيه، من خلال أنشطة مثل مناقشات الكُتب الأدبيّة والفكريّة، وإطلاق موقع تكاملي وجائزة أدبيّة وبرامج تثقيفيّة، بجانب فعاليّات أخرى.

قائمة الأعمال:

كتب:

- "سِحرٌ حقيقيٌ" (2011) – دار العين للنشر – شِعر.
- "الجندبُ يَلهو حُرًا في شوارع القاهرة" (2013) – دار كلمة للنشر – مجموعة قصصيّة.

- "أسبُوع الآلام" (2013/ 2017) – نشر إلكتروني – شِعر.
- "بلا أجْنحَة" (2016) – دار روافد للنشر – رواية.
- "مَدينةُ الشَمْس" (2020) – دار العين للنشر – رواية.
- "33: عن الرُهاب والفَقد" (2021) – دار المرايا للثقافة والفنون – سرد.
- "ضِد الابتزاز المُزدَوج" (2022) – دار المرايا للثقافة والفنون – مقالات؛ ترجمة.

أفـلام:

- كتابة الفيلم القصير "بهدوء" (2014) الذي عُرض في مهرجانات محليّة ودوليّة عديدة بإسبانيا والولايات المتحدة والسويد، وحصل على الجائزة الأولى في مهرجان بغداد السينمائي الدولي.
- كتابة وإخراج الفيلم التسجيلي "تبدأ حين تنتهي" (2015) عن وسيلة العلاج الجماعيّة بالدراما والتمثيل – السيكودراما الحديثة.
- كتابة وإخراج الفيلم القصير "فول مدمّس" (2020).

برامـج:

- برنامج "سوشي بوك ريفيوز" على موقع يوتيوب، للمراجعة المصوَّرة واللقاءات الثقافيّة والفكريّة والأدبيّة (2017، 2021).

- بودكاست "مع مينا وإسلام" على موقع "ختم السلطان"؛ لقاءات مع كتّاب وشعراء ومترجمين حول المشهد الأدبي العربي المعاصر (2019–2020).
- كتابة سيناريو حلقتين عن 'الحرب الباردة' للبرنامج الشهير "الدحيح" (2021).